أنطوان دوسانت اكزوبيري

رسائل الشباب

إلى الصديقة المختلقة

ترجمة:
روز مخلوف



الإشراف الفني

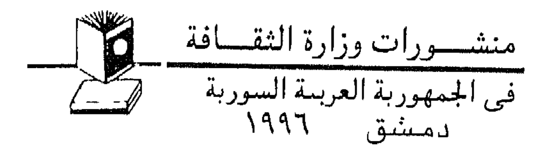
زهير الجمد

أنطوان دوسانت اكزوبيري

رسائل الشباب

إلى الصديقة المختلقة

ترجمة : روز مخلوف



منشـــورات وزارة الثقـــافة
فى الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٦

العنوان الأصلي للكتاب:

Antoine de Saint-Exupéry

Lettres de jeunesse

à l'amie inventée

1923-1931

illustrées de dessins de l'auteur
et présentées
par Renée de Saussine

رسائل الشباب. الى الصديقة المختلفة = Lettres de Jeunesse
/أنطوان دوسانت اكزوبيري ' ترجمة روز مخلوف - دمشق. وزارة الثقافة،
١٩٩٦ . - ١٣٦ ص؛ ٢٠سم .

١-٨٤٦ ف س ا ن ر ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- سانت اكزوبيري ٥- مخلوف
مكتبـة الأسـد

الايداع القانوني ع - ١٦٢٦ / ١١ / ١٩٩٦

مقدمة

عشر سنين من عمر انطوان دو سانت إكزوبيري، بين العشرين والثلاثين، من الشباب والصداقات. هي فترة الحساسية المرهفه، فترة الهزل والمجون والنضالات المؤثره غالبا. بعدها، سيعنر أنطوان، الطيار والكاتب اللامع، على وحدته، على طريقه ومجده. وهذا مؤثر أيضا ولكن من نوع آخر

عندما أقلب هذه الرسائل، تزدهر ثانيه، ألف نغمة من نغمات الذكريات، بدءاً بالانطباع، الذي ما يزال محتفظا بقوة تأثيره، وصولاً إلى الانفعال الحاد. . . أذكر إحدى حركاته، ربما الأكثر تكراراً لديه وهو يحمل في يده اليسرى بين السبابة والاصبع الوسطى سيجارة، ممسكاً في الوقت نفسه علبه النقاب، يشعل عود الثقاب باليد اليمنى، فنضيء الشعلة وجهه من الاسفل، تتوهج ثم تموت. تبرز قامته، قامة المصارع، ووجهه الذي يشبه وجه«جيل» في لوحة«وانو»* ، ثم يختفيان في الظل

---

* «جان أنطوان واتو»رسام فرنسي شهير عاش في القرن الثامن عشر، وتعتبر لوحه «جيل» واحدة من أهم وأشهر لوحاته

مقدمة طويلة للبدء بجملة أو مقطع من قصيدة صغيرة، للدفاع الجيد عن موقف، بشكل عنيف، وإن يكن بصوت أصم، من ناحية، ومن ناحية أخرى هي مختصرة جداً للوصول إلى خاتمة، ولم ذلك ممكناً، إذ لا أحد كان يحمل نفس رأي الآخر.

وتبدأ مناورة أنطوان من جديد، وسرعان ما تمتليء منفضة السجائر بأعواد الثقاب التي تشكل مجمرة ضئيلة تحت سيجارته التي لم تمس.

في أسرتي، كانت الآراء تنقسم بشأنه:

● كان والدي يقول: ياله من صبي رائع!

لكن أمي وأخواتي الكبيرات كن يعجبن من صمته ونحن الأكثر شباباً، كنا نتعرف عليه وراء حاجز صمته ذاك، حاجز يرفعه الأطفال بيسر شديد، أو يتخطونه، ومثله كنا لا نزال أطفالاً.

كان أنطوان يرتاد نفس الاعدادية النبي يرنادها أخي: مدرسة(بوسّوينه) التي بؤدي إلى ثانوية (سان لوي) كان رفاقه بلاحظون منعجبين:

● باله من شخص! بعش على القهوة بالحلب ليمكن

من شراء سدسية*. ويكتب الحكايا أثناء الوقت المخصص للدراسة. سيكون له شأن فيما بعد.

كان بين مجموعة من الصبية المرحين الذين كانوا يدرسون في المدرسة البحرية متبعين، على حد قول أحد الأساتذة«مناهج محكمة لتضييع وقتهم».

وفي يوم، أثناء أزمة المواصلات، استبقى أخي برتران و الذي كان يلقب بـ ب١. أو ب٢-، اثنين من المجموعة، للغداء.. ثم ومن الساعة السابعة، حلوا في الباصات بدلاً من السائقين المضربين. هل كان انطوان وبرتران يراقبان التذاكر؟ ما عدت أذكر. كان الشيطان الثالث يقود الحافلة (سوف نسميه أوسيبيو لأن نوع كوميديا دوموسيه يلائمه جداً).

في ذلك البوم، عانت بائعة برتقال من الأمر كثيراً، على الأقل، عربتها؛ وكانت البرتقالات ما تزال تزين شارع سان جيرمان.

كنا نعرف أن انطوان يكتب. هكذا قرأ لنا بعد الظهر، دراما شعرية من تأليفه، تتطور فيها شخصبات أمراء قطاع طرق في مملكة متخيلة، يبهرونها ويبثون فيها الذعر... كان

---

* سدسيه الة فياس ارتفاع الأحرام السماوية من سفينة أو طائرة متحركة

المؤلف ينشد وفوق عينيه خصلة شعر سوداء، وفي يده قطاعة ورق. ياله من خنجر! لقد أنساني مسألة البرتقالات.

بعد عامين من ذلك رسب أنطوان في مسابقة مدرسة البحرية. فأي مهنة سيمارس إذن؟ لطالما نوقش الأمر ضمن مجموعة أصدقائه الصغيرة. ذلك كان صيف باريس الحار. وإذا كانت دراسة الرياضيات قد تأثرت من الحر، فأن هذا الحر كان يشجع على الأحاديث الطويلة في شرفات المقاهي. لقد أصبح سان جيرمان دي بري مقر قيادتنا، وسوف تظل تلك المقاهي في ذكريات أنطوان الباريسية موجودة عن بعد:

تذكرون ذلك النادل في مقهى ليب، الذي كان يرسم بقلم الرصاص شعرات على جمجمته؟ وعلب الكرافن أو اللوكي الفارغة التي كان يطلبها لحفيدته كي تلهو بها وتدعه ينام في الصباح... أو في البيت، بشارع سان غيوم، أثناء الجلسات الموسيقية التي كانت تلقي لديه مستمعاً شغوفا ومتحمساً. وحيث كان أحياناً يأخذ كماني ويعزف مرتجلاً، شيئاً خلافاً، ثم، وبشكل فجائي

● لنذهب إلى السينما.

أذكر شارلي شابلن، في تحليل قام به أنطوان لفيلمه(الحاج). ياله من اكتشاف!

لأن أحاديث أنطوان، عندما كان يتنازل ويتكلم، كانت تستنفر الأصداء. وحتى اللحظة الراهنة أفكر بأحد أبيات قصيدة... تثبت رؤية الشاعر على المنظر الجانبي الحاد لإحدى المدن:

«عصفور واحد يستطيع أن يحط هناك».

كان أنطوان يزن كلماته بعناية، شديد الحساسية للإيقاع إلى درجة المجازفة بتبني النصيحة الخطيرة التي تقول:

خير لك أن ترتكب خطأً في اللغة، من أن ترتكب خطأً في الإيقاع!

ونعود للمناقشة التي يلعب فيها أنطوان دور محامي الشيطان أمام أوسيبيو غير القابل للإفساد. وسوف يبقى أوسيبيو هذا أفضل أصدقائه، لكن مشاحنات دائمة ظلت بينهما. أما أنا المطمئنة فيما يتعلق بالأدب، فقد خاطرت يوماً، وطلبت نصيحة. حصلت على ما هو أفضل. بعد إشارة تعاطف ودية، حصلت على جواب مكتوب، هو تأكيد لثقته. تلك كانت أول رسالة أتلقاها من أنطوان(١، ص ـ ٢٧ـ).

حانت ساعة الالتحاق بالخدمة العسكرية. أخي بحار، وأوسيبيو قناص جبلي. وأنطوان طيار.

في مطار بورجيه، كان أنطوان، الملازم في الكتيبة الثالثة والثلاثين للطيران يتصيد البهلوانية. ورغم أنه كان قد عقد خطوبته، إلا أنه أخذ يرتكب الحماقات ويطير بمستوى الارض، حتى أطلق عليه اسم«المحكوم بالموت». في يوم أحد، وبينما كان على ارتفاع منخفض فوق الضواحي، أدى نفاذ وقوده إلى تدهور السرعة ثم السقوط. النتيجة كسر في الجمجمة، نقاهة طويلة وخلاف مع أسرة الخطيبة رغم تقديمه للاستقالة المرجوة

ما العمل؟ عليه أن يشتغل. لأن أنطوان كما يقال: « يجر الشيطان من ذيله»، وأسرته التي نعود إلى أصل جنوبي فاضل، بعيدة. وعليه أن يتدبر أمره.

هاهو سانت اكزوبيري جالس في مكتب هو مكتب شركة التوبلري في بوارون. يقول بكآبة:

● هذا العمل يلائمني مثل نُوب يجر ذيله!

أخذت كآبته تزداد مع الأرقام التي يصفّها. ولكي ينتهي من صحبة هذه الارقام، سرعان ما انتقل إلى شركة أخرى، شركه كاميون سوربر.

هاهو سانت اكزوبيري ممثل الشركه، يقود شاحنته التي تتسع لحمولة خمسة أطنان، إنه على الأقل يسافر ويكتشف حتى آخر« قرية» صغيرة، في الضواحي الفرنسية.

بعد ذلك بفترة وجيزة، وصلتني رسالة من « دومبيير سور بيسبر»(٢ ، ص - ٣٣-)

في مورفان تابع أنطوان رحلاته بصحبة أوسيبيو الذي وافاه إلى هناك. ثم قام برحلة متفحصة لمنطقة«لاكرور» وحده هذه المرة (٣، ٤، ص ٣٩ ـ ٤٥).

في باريس، كنا نشتاق لـ«سانت إكزو» . . . حمداً لله! أن هذا الصوم عن الاتصالات الودية، كان يخرق كلما كان أنطوان يعود إلى باريس، وكانت تتكرر تلك الجولات في سان جيرمان دي بري، انطلاقاً من ليب، إلى محل«لادم بلانش» للحلويات، الذي كان يتحول إلى صدى لنقاشاتنا. عندما كانت التواريخ تتوافق، كان أنطوان، الطيار سابقاً، يلتقي بأخي، البحار، القادم من بريست في اجازة. كان أخي هذا يصطحب معه رفاقاً له. ويتسع الجدل. بين أولئك البحارة، كان يوجد شخص عنيد يدعى ألبير، صاحب حجه، ومحب شغوف لأنواع الحلويات. ما أن يجلس في محل« لادام بلانش» حتى ينادي:

● يا آنسة! ناولينا البابا* .

يشم رائحة البابا :

● يا آنسة! ما هذا الروم، من فضلك؟

● ولكن يا سيد(د) . . . إنه روم البابا .

لا ياآنسة . نادي المحاسبة لو سمحت . ثم مخاطباً المحاسبة :

يا سيدتي، ليس مقبولاً أن يوضع هذا النوع من العصير في البابا! هلا ناديت المدير؟

● ولكن يا سيد(د) . . .

يصل المدير .

● يا سيدي، أرغمت نفسي على ابتلاع« باباكم»، أما الحساب، فلا يمكنني ابتلاعه! الروم الذي نستخدمونه في البابا، يا سيدي، من الأفضل أن أقولها لكم . . . إنه كحول بدائي . طاب نهارك يا سيدي .

ويعلق أنطوان بقدر أقل من الحدة :

---

* البابا . نوع من الحلوى تعجن بشراب الروم

● أنا لاأحب« المشاكل»، إلا أن الوقاحة التي تصل إلى حد العبقرية، أمر يدافع عنه!

التقينا من جديد، أختي لور وأنطوان وأنا، في محل «لادام بلانش». كانت الأحاديث الأدبية ضمن برنامجنا. إلا أن النقاش تركز باتجاه بيرانديللو الذي كان «بيتويف» يقدم مسرحيته« لكلٍ حقيقته»، على مسرح الشانريليزيه.

بعد ذلك، وعندما احتد النقاش، كان يجب رؤية نادلات المقهى وقد تحولن، أمام عنف الكلام، إلى تماثيل من الملح...

مع ذلك، كان الأمر بيننا قد بدأ بشكل ممتاز. كان أنطوان مفتوناً بإقامته في باريس، يرى استقبال الأصدقاء شيئاً عظيماً:

● أنت بالنسبة لي (بور)* يا رينيت!

● أنا (بور)*، سانت انطوان؟

● هذا مبالغ فيه!

* هنا يوجد تلاعب بالألفاظ فكلمة بور الأولى تعني(ميناء) بالعربية وبور الثانيه تعني(حرير)

كان يحمرّ، غاضباً، متأثراً، فضولياً أمام تسلياتنا الربيعية.

في تلك اللحظة، ظهر بيرانديللو، معكراً صفو الجماعة. عند سماع ذلك الاسم، رأيت أول غيمة كدر تغزو جبين أنطوان، سحابة تعكر صفاء عينيه السوادوين الكبيرتين الرائعتين بنزاهتهما، المتوضعتين نوعاً ما، على جانبي وجهه، مثل عيون السمك.

● آه! يتنهد أنطوان.

تستطرد أختي، وأنا أوافقها القول: شاهدنا «المغامرة الجميلة» لـ آرسين لوبين. أية قنبلة تنفجر على الخشبة، تلك القصة التي ما عادت قصة حب، ولا قصة بوليسية، وإنما قصة فلسفية، بل وأكثر تشويقاً بكثير!

● يهمهم أنطوان متذمراً! ويسود وجهه بلمح العين.

● اندفعت أختي غير مدركة للعاصفة، قائلة: الأمر بسيط جداً. يجب العودة إلى ابسن كي نجد مادةً بهذا المسنوى.

بشحب لون أنطوان:

● اف! ينفخ قليلاً . . . كيف يجرؤ أحد على المقارنة؟ صاحبكم بير انديللو، إنه عبارة عن ترثرة ميتافيزيقية.

ينهض بشكل فجائي فتقع إحدى الملاعق الصغيرة، ويوقظ رنينها الفضي تماثيل الملح. وعلى رصيف شارع سان جيرمان كان الوداع متكلفاً بعض الشيء.

ما سبب ذلك الغضب المفاجيء؟ أحتفظ لـ إبسن بذكرى من مسرحية« البطة المتوحشة» التي هزنني كثيراً. ولكن هل تعتبر القوة الدرامية المختلفة، شتيمة؟ وماذا عن البعد الميتافيزيقي الذي كان ينحو إليه، دون أن يعرف، بيرانديللو وجمهوره، الذي كنا نشكل جزءاً منه؟ تبقى صفة « الثرثرة»، كان هذا أصعب ما يمكن ابتلاعه.

يجب الفول أن أنطوان عانى من الأمر أيضاً: فقد اضطر أن يمضي جزءاً من الليل في تحديد موقف« سانت إكس»، كانت المستقبل، من القضية، ليس الفلسفية والأدبية فحسب، بل الاجتماعية أيضاً. كل ذلك، مسبوقاً بالنصائح التي طلبتها في المقهى، ومضمّناً في رسالة مطولة حملها إليّ في الثامنة صباحاً. (٥، ص ٤٧)

تحتاج الأعمال أيضاً أن نحبها لنفسها. لا يعيش المرء في محل «لادام بلانش» على البابا والمثلجات والفلسفة. لم يبع

أنطوان سوى حمولة شاحنه واحده طوال عام. كان مسؤولو شركة سورير يجدونه جذاباً ولكن غير عملي.

كان نجمه يصعد في سماء الأدب. في ذلك الوقت كانت إحدى قريبات أسرة سانت إكزوبيري، تهتم بالعلوم وتمنح الكثير من الكتّاب، ترحيباً يليق بسيدة عظيمة وصديقة*. وعند هذه السيدة التقى إكزوبيري ب آندربه جيد ورامون فيرنانديز وغاستون غاليمار الذي أصبح ناشر أعماله في المستقبل. وعبرهم بول فاليري و ليون بول فارغ وكل أسرة تحرير «المجلة الفرنسية الجديدة»... وكان جان بربفوست، أحد المتعاونين مع المجلة، يهتم بالمنشورات الجديدة. وفي أثناء حديثه مع اكزوبيري، ذهل من ذلك القدر الهائل من الحنين إلى التحليق في الأجواء الذي يلازم هذا الطيار السابق الشاب، يا للكلمات التي يعبر بها عن ذلك الحنين ، ويا للقوة!

- يجب أن تكتب كل هذا. قال له
- أتعتقد؟

لم يمض وقت طويل حتى قام جان بريفوست، وهو سكرتير تحرير في مجلة« الزورق الفضي»، بتقديم الكاتب

---

* كانت إيمون لستراانج في دلك الوفت(١٩٢٥ -١٩٢٦) دوفه برنصر .

الشاب أنطوان دو سانت اكزوبيري، للسيدة آدريين مونييه، المديرةالمؤسسة للمجلة. وقد ظهرت قصته الطويلة«الطيار» ليس في المجلة* فقط، بل في ذلك الوسط الحار لرواد مكتبة«أصدقاءالكتب»، في٧ شارع أوديون، مكتبة آدريين مونييه التي ظلت مكتبة شهيرة. . .

أمر لطيف أن تكتشف وأن تقدر بهذا الشكل.

يصيح فرحاً أحياناً: أريد فعلاً أن أكون سعيداً رغم كل شيء! . ولكن! إني مضطر للسفر إلى الضواحي مساءً.

كنا جميعاً، نحن أصدقاؤه، نعاني بقدر ما كان يعاني هو، من مهنة ممثل الشركة هذه. كنت أرى أنطوان كبطل من أبطال بلزاك، استطاع بواسطة قلمه، أن يفوز بالذهب والمجد، وأن يغزو باريس والعالم الذي أصبح ذات يوم، تحت قدمه بالفعل. ولأنني دهشت، بعد هذا النجاح الأول، من عدم اختياره مهنة الأدب ببساطة، أجاب:

● قبل الكتابة، يجب تأمين العيش. .

هذه الجملة هي صدى رائع لجملة أخرى صاغها على

---

* ظهرت الطبعة الأولى من بريد الجنوب في عدد الأول من نيسان عام١٩٢٦ (العدد الحادى عشر من هذه المحلة)وقد أرفق النص بمقدمة بقلم حان

الشكل التالي:

● الكتابة هي نتيجة!

من جديد بدأ يبحث حوله. وكان أحد أساتذته القدامى يعرف المدير الإداري لشركة «لاتيكوير»، حيث ستوضع، قيد الخدمة، طائرات بريدية وتجارية حديثة. ويجري البحث عن طيارين جدد.

شعر أنطوان بالنداء القديم ينبه مستقبله. وقرّ قراره: لا مكاتب بعد اليوم، لا تجارة ولا شاحنات. وأوضح فيما بعد دون لبس:

لم يكن لدي سوى رأسمال واحد أغامر به: رأسي.

أرسل طلب توظيفه، ثم ودع، على عجل أصدقاءه. (٦، ٧، ٨، ص - ٦١ - ٦٣ - ٦٩).

وباعتبار أن أنطوان أصبح منذ ذلك الوقت بعيداً، فقد كنا نحن أصدقاؤه، نكتب له. كنت أكتب له ولكن ليس بالقدر الكافي، وليس بالسرعة اللازمة. المراسلة، ذلك البلسم المضاد للوحدة، الذي كان يطالب به، كنا نحتاج، حاجة المطببين، للوقت لكي نعيد صنعه مرة بعد مرة.

كانت الرسائل تتقاطع، دون أن نظهر، نحن، ما يكفي

من «حب الصداقة». الحب وحده، هو الذي كان يسير بشكل أسرع. هو كان يرسل من تولوز، محطّة الأساسية، المشاهد الأولى لعيش جديد(٩، ١٠، ١١، ص ٧١, ٧٣, ٧٥).

كان يكفي تنافر في الأصوات، أو صمت ما، لكي تتعالى، أكثر إلحاحاً وحسماً، الموضوعات الكامنة في عمق طبيعة أنطوان: الكآبة «خصوصية فيزيائية سببها العبقرية» كما يقول غوته، إحساس بالنكبة إزاء صدمات الحياة، وتلك الرهافة، لكنها رهافة تجعله أهلاً لتلقي الأصوات السماوية... الوحدة المتشككة أو على حد قوله: «الوحدة التي تكاد تكون رائعة»؛ بحث قلق عن «معنى الحياة». مؤالفة لا تخلو من صدامات مع «الطبيعة». تأثير الزمن، عراك مع العناصر، واسترخاء وله عند ابتسام تلك العناصر. ميل للدعابة وحب للحياة ينبثقان عندئذ، من هذا الابتسام. نداء المهنة كلي القوة دائماً، نداء الخطر المتعاظم كلما مضى إلى الأمام أكثر.

الرسالة التي تحدد ذلك هي من الأهمية إلى درجة أن أنطوان نفسه يرى فيها أول احتكاك له مع الموت الذي لم يكن، من ناحية أخرى، يشعر إزاءه، بأي خوف ميتافيزيقي:

- إنه مثل أن تولد.

كثيراً ما كان يتحدث عن الموت.

لكن الموت، هذه المرة، ظهر فجأةً:

«...إدراك جديد، يتعذر تعريفه.»

كذلك إذا أراد الإقدام على خطوة جبارة، فإنه يتراجع إلى أقاصي طفولته، ملتمساً حميته واندفاعه: «هذا يذكرني بأحلامي الأولى، عندما كنت يافعاً».

عالم آخر بدا له قابلاً للمقارنة مع الموت، ويتمتع بنفس القدر من الغموض، وتعذر الإدراك: إنه عالم القلب: «يذكرني هذا بأحد الوجوه. شعرت بدقة، باللحظة التي حدثت فيها الحيرة. إنها لحظة الصدع! «استحالة تجنب السقوط». كلمات دونت بالأمس بين السماء والأرض. دخلنا في زمن القلق. (١٢، ١٣ص ٨١, ٨٧)

إن صدى أنطوان الإنساني والشعري، إذا قارناه بصوت كمان«ستراديفاريوس»، يعزى إلى النوعية التي جبلت منها روحه. وكما في تلك الآلة الموسيقية الثمينة، فإن وضع موطن الأنغام هذا في نصابه الدقيق يجعل كل شيء ممكناً. ذلك الضغط المذهل على الأوتار، على الذراع، وعلى القوس، تسنده« الروح» وتتوجه بغناء.

لكن الوتر الرصين لا يستطيع النجاوب دائما. وفي أداء

الفنان الكبير الذي صار إليه سانت إكزوبيري، يرى تنويعات رهيفة، معذبة على صديقه العزيز الآخر: الريف.

كان ليون بول فارغ يقول: «طونيو شخص ريفي». ربما تكون علاقته بالريف قد انهارت، إلا أن أثره العاطفي بقي.

كان أحياناً يتقن عمل ديكورات حقيقية، عروض باليه محلية، كل منها مع نجمهِ الخاص. شاهدنا من تولوز« كشك الصحف»، و«بائعة التبغ». وشاهدنا« بيبيتا» الاسبانية التي تؤجر غرفاً مفروشة. هاهي المدينة الاندلسية الصغيرة حيث يومض ليل الأول من كانون الثاني. هاهن جميع (كارمنات) آليكانت وبيربينيان اللواتي يستقي منهن خردته. (١٥، ١٦، ١٧، ١٨ ص٩٧، ١٠١، ١٠٣، ١٠٧)

يقوم أنطوان اليوم برحلات بريد منتظمة حتى داكار. وذلك رغم حالة الأجهزة والمحركات، ورغم عداء العرب. فبعض قبائلهم لم يتم إخضاعها، لذلك يطلقون النار على الطائرات ويخطفون الطيارين ويطلبون الفديات عنهم أو يعذبونهم.

في الماضي كانت الحياة المشتركة تثقل عليه: «أشعر

بحاجة ماسة لأن أكون حراً». والآن يمنعه الخطر الذي يهدد رفاقه من النوم. فهم يطيرون فوق قبائل نصف متحاربة، والتضامن القوي الذي ولد في أفريقيا سيستمر ويتسع. وفي قلب هذه الأخوة ستمتزج ملامح أنطوان مع ملامح «سانت إكزو»، وستنحفر في ملامح سانت إكس التي تحولت من الآن فصاعداً إلى ملامح اسطورية.

لم يطل الأمر حتى عين كومنداناً في كاب جوبي، حيث ينتظره كوخ خشبي، مستند إلى قلعة اسبانية. كان الهبوط في قلب الصحراء، وفي قلب الانشقاق. وإصلاح الأعطال يتم تحت وابل رصاص قبيلة «ريظو». فإما معارك أو معاهدات مع الموريسكيين، وقدرة على إقناع الاسبان، الحلفاء المحتملين..

ياله من رأس سنة حافل بالوعود! صاح في ليلة ساحرة في الأول من كانون الثاني ١٩٢٧. اليوم الثالث - ٣ كانون الثاني - هو عشية المضي إلى القتال، حيث أفلتت منه صورته المهتزة، المجزأة: « إني لعبة للرياح.. لا أتعرف على نفسي أبداً..». لكن، لكي ينهض سانت إكس، المسلح كفارس، من جديد ويمضي للمصالحة مع الموريسكيين، فلا بد أن يخلد للنوم كل من أنطوان التلميذ والغلام و الأمير الصغير. (١٩، ص - ١١١ -)

في ربيع ١٩٢٩، تمّ غزو أفريقيا. احتاج الأمر لعامين

فقط. وكانت الروايات والشهادات قد بدأت بالتوافد من هناك. بطل من العصور الوسطى، تلك هي الصورة التي يستحضرها سانت إكس في قلعة كاب- جوبي، حيث، في غمرة الانشقاق بين أغادير وسيزنيرو ،يتضرع إلى السماء المحرقة أن تصل طائراته وأن تغادر بنجاح، باذلاً أي شيء في سبيل ضمان سلامتها . وحيداً في محطة ترحيله الضائعة، وحيداً في زنزانته الخشبية، في ردائه البيتي الذي اشتهر به:

● يالها من حياه، أشبه بحياة الرهائن!

كانت حياته أشبه بحياة قائد خاطر بنفسه ألف مرة، سواء كان في الطائرة، أو على ظهر جمل، أو ماشياً على قدميه. شن معارك حقيقية دامية أو ديبلوماسية. أنقذ طيارين من مصيرهم المحتم. وبكى على الضحايا. رد أعداءه أو انتصر عليهم. أقنع الأسبان بضرورة تقديم دعم على عجل. لكنه في كل هذا كان لامعاً، مبهراً، أكثر من كونه محارباً. انحنت الجباه في تلك الحرب.

آنذاك حصل سانت إكزوبيري على إجازة للعودة إلى فرنسا. ألم يحقق وحدة الجماعة والفريق بعد أن حقق وحدته هو؟ لدى عودته إلى باريس، ضم إلى صدره مخطوط بريد الجنوب، الذي وضعه تحية لشهداء الطيران الأوائل

بقي أمامه أن يتخطى مرحلة أخرى: عند عودته إلى

باريس، عين مديراً للبريد الجوي الأرجنتيني. وكان عليه اعتباراً من خريف عام ١٩٢٩، أن يعود إلى بو ينوس إيريس. وصولاً إلى أرض النار، عبر الأطلسي، كان هناك خطوط يجب الإعداد لها وأخرى يجب تعيينها. هي ذي مهمته القادمة. تلك القفزة فوق الأطلسي بالنسبة لأنطوان، هي المنحنى المتناغم لإشعاعه، والسهم الذهبي الذي كان ينقصه، ألا وهو: النجاح.

من دائرة الرفاق والأصدقاء، خرجت رواية إنجازات سانت إكس لتصل إلى المجهولين، إلى الخارج. وخلال خمسة عشر عاماً، بما فيها الحرب وسياسة التأليه الوحشي، تحولت ملحمة إكزوبيري كطيار إلى أسطورة. وفيما بعد، توجت أعماله بجوائز عديدة. وحظيت رواياته «طيران الليل» و«أرض البشر» و«طيران حربي» و «رسالة إلى رهينة» و«الأمير الصغير» و«القلعة»، ليس بمكانة أدبية فحسب، بل بمكانة شعبية أيضاً.

ويبدو أن هذا الأمير الصغير، الشارد، لم يعش هذا المجد، إلا كاقتلاع أخير.

رينيه دي سوسين

(١)*

رينيت

إنني بالفعل رجل شرود بشكل لا يغتفر لأن قصتك ماتزال معي لكنني أدين لنسياني بصورة ركن ساحر فلا أندم على شيء.

أردت الاتصال بك يوم الأحد لأعتذر أخيراً. لكنك لم تكوني موجودة وعلمت من السيدة دي سوسين أنك في حداد. رينيت لا يسعني إلا التأكيد على صداقتنا القديمة وأقول لك كم أنا معك بقلبي.

البارحة مساءً شهدت انتصار عرض «اوسيبيو» الجميل. لقد كان يروي في صالة مليئة تماماً، كيف يتم صعود جبال قممها أكثر استدقاقاً من قبة الأجراس. وبينما كان يروي

---

* رسالة غير مؤرخة. تعود إلى خريف 1929 على وجه التقريب

× هي «رينيه دو سوسين» التي كتبت المقدمة.

بطولته دون اكترات، كانت السيدات العجائز يرتعشن. القصة كانت جيدة إلى حدما، أما الوصف، رينيت. . . كان يلون «القمم المتسامية» والمساء والفجر والغروب بألوان متكلفة الحلاوة، أشبه بحلاوة مربى الفاكهة أو القطر. كانت القمم وردية اللون والآفاق حليبية والصخور مذهبة بخيوط الشمس الأولى. كان المشهد يوحي بأنه شيء يؤكل. وكنت أثناء الاستماع إليه أفكر ببساطة حكايتك. يجب أن تجتهدي، رينيت. إنك تحسنين استخلاص العنصر المميز لكل شيء، العنصر الذي يكسبه حياة خاصة به. الأشياء في «أوسيبيو» تظل مجردات. إنها «القمة، الغروب، الشروق» وهي تخرج من مستودع الاكسسوارات. وكلما استرسل في وصفها فقدت خصوصيتها أكثر.

إن الطريقة سيئة أو بالأحرى الرؤية غائبة. ليس من المفروض تعلم الكتابة، بل تعلم النظر إلى الأشياء. الكتابة تأتي نتيجة. هو يتناول شيئاً ويسعى إلى تجميله. الصفات هي كم متراكم من الرسوم التزيينية. وهو لا يستخلص الجوهري بل يضيف تزيينات اعتباطية. فبخصوص موضوع إبرة، سوف يحكي عن الله وعو اللون الخبازي، والنسور. هكذا تشعرين على التوالي بالكبر فالحنان ثم الخوف. هذا احتيال. يجب

طرح السؤال التالي على النفس: «كيف اوصل هذا الانطباع؟»
فالأشياء تولد من انعكاسها فيك، وتوصف بعمق. في هذه
الحالة فقط لا تكون الكتابة لهوا. أحدثك عن عرض «أوسيبيو»
لأن عيوبه تبرز جيداً، بالتضاد، المزايا التي لديك والتي يجب
أن تصقليها. انطلقي دوماً من انطباع. مستحيل أن يكون ذلك
تافهاً. وسيكون في نصحك رابطة حميمية. ولن يكون
مصنوعاً من مقاطع مفككة. لاحظي كيف أن أكثر
مونولوجات دوستويفسكي تشوشاً، تعطي الانطباع بأنها
ضرورية ومنطقية. وكم هي متماسكة. الرابطة هنا داخلية
وإلى أيْ حد تبقى شخصيات الكثير من الكتاب الآخرين
الذين قد تستطيع نفسيات شخصياتهم المركبة أن تكون
متماسكة، إلى أي حد تبقى شخصيات اعتباطية في كلامها
وفي أفعالها رغم المنطقية الخارجية للحدث. إنها بنى متكلفة
متل جبال «أوسيبيو». نحن لا نبدع شخصاً حياً بأن نلحق به
بعض المزايا والعيوب، ثم نستنبط منها رواية، بل بأن نعبر عن
انطباعات معاشة إن الإحساس حتى إذا كان بسيطاً كالفرح
هو أشد تركيباً من أن يبتدع هذا إذا لم تشائي الاكتفاء بالقول
عن بطلك بأنه «كان فرحاً» الوصف الذي لا يعبر عن شيء
والذي ليس فردياً. فليس هناك شعور بالفرح شبيه بشعور آخر
بالفرح. وهذا الاختلاف تحديداً، أي الحياة الخاصة لهذا
الفرح، هو ما يجب التعبير عنه. ولكن هنا يجب ألا يكون

المرء مدعياً. و ألا يشرح هذا الفرح، عليه أن يعبر عنه من خلال نتائجه وعبر ردود أفعال الفرد. عندئذ لا يعود هناك حتى حاجة لقول «كان فرحاً». سيولد هذا الفرح من تلقاء نفسه مع فرديته كفرح معين تشعرين به ولا توجد كلمة واحدة تنطبق عليه تماماً. إذا رأيت أن كلمة فرح تكفي للتعبير عن فرح بطلك فهذا يعني أنه مصطنع وأنه ليس لديك ما تقولينه.

أشعر أني مضحك وأتوقف. في الحانة التي أكتب منها يشدو بيانو ميكانيكي بلحن عاطفي. أمينة الصندوق تترجّح من اليمين إلى اليسار. رئيس العمال الذي لم يعد لديه رغبات يتثائب. النادل يسعل ويدور حولي لأنني الزبون الأخير ولأنه يريد النوم – الجو كئيب. أشعر أنني ثقيل. سأمضي.

لم أشكرك رينيت على عزفك لي المرة الماضية تلك الصفحات من باخ. إنني لا أعرف كيف أشكر بشكل جيد لكنك منحتني سروراً عظيماً.

النادل رينيت مزروع أمامي ويحرك فوطته كمن يكنس.

إذن وداعاً رينيت.

أنطوان



(٢)

دومبيير سور بيسبر

اعذريني رينيت على استخدامي الورق الخاص بالمقهى الصغير الذي أكتب منه. إنه نزل قديم، لجأت إليه بسبب عاصفة ثلجية كثيفة إلى درجة ماعدت أعرف معها إلى أين أذهب.

كنت أبدو مثل حاج بمشلحي الأبيض الجميل.

يالها من ضيع صغيرة طريفة، تلك التي أتجول فيها. جاء أحد الأصدقاء ليلاقيني بسيارته في مونتليسون وتنزهنا معاً. عند وصولنا إلى هنا أمس في التاسعة مساءً علمنا أن شبان البلدة سيقدمون عرضاً كبيراً في مبنى البلدية. ذهبنا إلى هناك. هكذا استقبلنا من الوهلة الأولى في حميمية «دومبيير سور بيسبر». محشورين بين امرأة سمينة تعمل بائعة في بقالية وبين الصيدلاني، استطعنا خلال خمس دقائق أن نعرف اسم المغني، والقصص الماجنة لابنة المساعد، واللكنة الخاصة بالبلدة. يالها من ثقة. في هذا الجو كنا نرتعش مع كل مقطع يمجد الوطنية. كَمٌّ من المشاعر القديمة الجذابة التي كان يجب

المجيء إلى هنا لنسمعها، سليمة، بمفرداتها العتيقة والظريفة: «الجرمانيون» «المحاربون البربر» «الامبراطور الخائن». ثم قمنا بزيارة محل للأثريات حيث تأثرنا عندما اكتشفنا مجموعة حليٍ من طراز روكوكو تعود لأيام جداتنا.

جوقة عسكرية، رينيت، بكل آلاتها النحاسية وأبواقها! طلاب مدارس مبرعمين ينفخون فيها. كنا خائفين على خدودهم في حالات النفخ القصوى.

عطل كهربائي وشموع وضحكات مخنوقة. وتدور أحاديث بين الممثلين على الخشبة والأهالي في الصالة «آه هذا أنت يا مارسيل!- نعم... لحيتي تقع!». ولكنها تثبت من جديد في جو عائلي... تلاها البوح المتبادل مع البائعة والصيدلاني...

رينيت، انطلقنا من جديد عند منتصف الليل، سعداء أننا فاجأنا دومبيير غدراً، وأننا لم ندخل عبر المحطة، وعبر فندق ليون دور، وابتسامه مديره المهاجر.

رافقت صديقي حتى روان، فهو لا يرى جيداً، وفي الليل يحسب كل ظلال الطريق، دواباً. أوصلته بسرعة عبر قرى صغيرة نائمة. بيوت منخفضة كأنها كوم، تليها روان.

ياله من وصول كئيب. طالعنا أولاً مصنع هائل، بفتحات هندسية كبيرة مزججة ومضاءة بقسوة. تلاوه مصنع ثان فمصنع ثالث. كان المطر يهطل، والساعة تقارب الثانية صباحاً ولم نكن نرى شيئاً آخر سوى هذه المصانع وبرك الماء المعدنية أمام المصابيح. ثم كل مئة متر ضاحية مضاءة بالغاز مثل حصن. خيط لا ينتهي من البيوت المربعة. ومن وقت لآخر نرى دكاناً مبقع الجدران. لا يوجد عابر سبيل واحد. أخيراً أمام المحطة، هاهو فندق سأنام فيه بانتظار القطار الذي سيعيدني إلى أمارة «دومبيير سور بيسبر». روان... اسم ملائم ذو وقع فرح وحفيّ.

لم يعد الثلج يتساقط والجو صاف. أيكون هذا بفضلك؟ غداً إلى مونتليسون. المدينة التي تتلخص في شارع عريض -شارع كورنيه- الذي يذهب الناس إليه في نزهة مثلما يذهبون إلى الغابة في الخامسة مساءً. عدد لا يحصي من الفتيات يتمشين على مهل، مخفورات بشبان يرتدون الكنزات على دراجاتهم. هم عشاق هذا المكان.

السبت الماضي علمنا بوجود حفلة رقص في مونتليسون و ذهبنا إليها. حفلة رقص في مونتليسون، لابد أن الأمر سيكون طريفاً... للأسف. لم يكن هناك عامل بار، ولا

مشروبات، ولا موسيقا جاز. حفلة وكيل مقاطعة، الرقص فيها يكون تحت رقابة الأمهات الشديدة. كانت الأحاديث من نوع: «والسيدة زوجتك؟ والشابة؟ كيف الحال؟». كانت «السيدات» تشكلن مربعاً حول الصالة. وكأنهن الحرس القديم. كن تجترن بسكينة. كانت «الشابات» بلباس زهري أو أزرق سماوي، تدرن في الوسط بين أذرع سائقي الدرجات. وتبدو الأمهات أشبه بلجنة تحكيم. كان سائقو الدرجات يزدهون ببذلات سموكنغ رسمية جديدة ومنشّاة لها رائحة النفتالين. كانوا ينظرون إلى أنفسهم في جميع المرايا. يشدون أكمامهم ويحركون رقابهم لأن الياقات كانت تسبب لهم الحكّة. كانوا سعداء.

ذهبت أيضاً- وحدي- إلى «أرجنتون سور كروز» وهي قرية صغيرة فاتنة. الضجة الوحيدة التي نسمع فيها تصدر عن ترام بخاري ينقلونه كل أربع ساعات كلعبة فوق خط حديدي صغير. كان الطقس رائعاً وهمت على وجهي. أمام كل محل حلاقة، يتلقى المرء نفحة طازجة، كذلك أمام محلات الألبان ومحلات الفاكهة. في النهاية جلست فوق حاجز جسر حجري عتيق. وضعت قبعتي بجانبي وتولد لدي إحساس كبير بالحرية. قبعتي كذلك -إنها تبحر حالياً باتجاه

أميركا. رأيتها تبتعد ببطء، وتتعطف بكاء وتختفي. لم أشعر حتى بالغضب، كنت كئيباً.

ذهبت لأشتري قبعةً أخرى. كانت البائعة في نفس الوقت صانعة للقبعات. وهي فتاة صغيرة ورزينة. جلست على إحدى الطاولات وغازلتها. حدثتني عن «عمتها» كما لو أنهما كانا اثنين من معارفي القدامى. أبديت اهتماماً كبيراً بالموضوع. سألتها: «هل عمتك متقدمة في السن؟ أجابتني: «آه! تمزح..» تصوري، إنني لم أحزر حتى أن عمتها شابة! توقفت عن طرح الأسئلة، قلت «نعم» كمن فهم. ثم انطلقت نحو قطاري.

أتركك رينيت، أنا ذاهب إلى مولان سأودع هذه الرساله في البريد. يجب أن تردي علي برسالة صغيرة، أطلبها من شباك بريد مونتليسون. ماقولك؟ لأن شارع سان غيوم بعيد جداً.

تفضلي بتقديم احترامي للسيدة دو سوسين، وثقي، عزيزتي رينيت، بصداقتي العميقة التي تعرفينها.

أنطوان





(٣)

أنطوان

لومورفان المصور: كوخ قديم [بطاقة بريد جماعية من أنطوان دو سانت إكزوبيري ومن س. . . (أوسيبيو).]

أنطوان

رينيت العزيزة

نحن نتناول الغداء. كنا نود دعوتك لكن ذلك ليس سهلاً. خسارة لأن أوسيبيو يتمتع بالصدفة بمزاح جيد.

أوسيبيو

أأقول نفس الشيء عن أنطوان الذي أحرق للتو إصبعه وهو يلهو بالنار ويتمنى، يا رينيت الرقيقة، أن تكوني أنت ممرضته

أنطوان

أوسيبيو سعيد جداً بجملته: لو ترين الزهو الذي يبدو عليه. . .

أوسيبيو

لكي يكتب أنطوان هذه الحماقة، عمد إلى إطالة البطاقة عند الجزء المخصص للعنوان. هكذا يقودنا تناقضه إلى الدمار (40درجة سنتيغراد).

أنطوان

جاء دوري لأكون لطيفاً: إني مستعد أن أفعل أي شيء لأجلك.

أوسيبيو

أنطوان يتباهى بنفسه. قال إنه كان يتغدى. هذا ليس صحيحاً: إننا بانتظار الغداء -بل لقد مضى وقت طويل ونحن بالانتظار.

أنطوان

نعم، لكننا نشرب.

المورفان المصور (2):

قصر شاستيلوكس. منظر عام.

أنطوان

... البطاقة الأخرى -البطاقة اللطيفة- هي البطاقة

التي اختـرتها أنا. أما هذه -البطاقة المتحذلقة- فهي بطاقة أوسيبيو.

أوسيبيو

أترين هذا الأبله الذي يختار البطاقات لأجل (الصورة) التي عليها! . . . جلسنا إلى مائدة الطعام.

أنطوان

تخاصم أوسيبيو للتو معي بسبب جملتي. وهذا يفسح لي مكاناً كبيراً لأكتب لك.

أوسيبيو

بسبب الواجب المدرسي الذي عليه انجازه في العطلة، ينسى أنطوان التهام باتيه لحم الأرنب

أنطوان

أوسيبيو مستعد للتخلي عن صديقاته مقابل باتيه من لحم الأرانب. ليس هناك ما يدعو للفخر.

أوسيبيو

لكل شيء أوانه! لو تسطيعين رؤية ذلك السمين المنفوخ الذي ترك القلم ليمسك بالشوكة ويلتهم الطعام. .

أنطوان

أنا الآن من يتشاجر مع أوسيبيو . إنه ليس حسن التربية . لم يعد لدي أية رغبة بالكتابة على بطاقته المتحذلقه . رينيت ، تصالحنا كي نفكر بملجأنا العظيم شارع سان غيوم وكي أشكرك على صداقتك .

أوسيبيو

حقيقيةً ، هو ذا الشيء الوحيد الذي له معنى والذي استطاع أن يجده ، ذلك الأبله المسكين! أعنيه هو ، وليس أنت .



(٤)

الفندق المركزي الكبير

ساحة بونبود

غيريه (كروز)

غيريه، لا أدري في أي يوم من...192

رينيت، أرسل لك كلمة صغيرة. أظن أنك لن تردي. .

ليس لدي الكثير لأقوله، لأن حياتي الآن عبارة عن منعطفات أمر بها في أسرع ما يمكن، وفنادق جميعها متشابه. والساحة الصغيرة لهذه المدينة حيث تبدو الأشجار مثل المكانس.

خلال عشر دقائق سأسافر مسافة مائتي كيلومتراً.

تخيلي، لقد كتبت. وربما كنت أنت السبب، يامديرة أعمالي. . . وأتعجّل لأقرأ عليك هذه القصة التي تدهشني أنا نفسي! يجب أن تحبيها، ودون ذلك لن أعود لكتابة شيء أبداً.

أشعر بالكآبة قليلاً: أتبع حمية عن الكلام.

ربما تشعرين في أعماقك بالشفقة على عزلتي؟

صديقك أنطوان

(٥)*

[باريس]

العزيزة رينيت

أعيد لك رواية السيدة . . . أربط بهذه الرسالة مجمل رأيي بها . ولأني وجدت فيها أشياء جيدة ، فأنا أتكلم أيضاً عن عيوبها . دون ذلك ماكنت لأشغل نفسي بالأمر . من ثم فإن هذه المآخذ شخصية تماماً وقد لا يشاركني الكثير من الناس في تصوري عن الأدب الأمر الذي أجد نفسي ، فضلاً عن ذلك ، لامبالياً إزاءه بشكل عجيب .

أنا في غاية الانزعاج لأني شعرت أني كنت عنيفاً بعض الشيء بخصوص بيرانديللو . بل فظاً تماماً . وقولي (ثرثرة ميتافيزيقية) أهضمه بصعوبة . لم يكن قولاً محبباً على الاطلاق . لكني لكثرة ما طبقته على بيرانديللو جرى على لساني بحكم الاعتياد . يلي ذلك شعور مبرر بارتكاب زلة .

---

* رسالة غير مؤرخة يحتمل أن تكون قد أرسلت في ربيع ١٩٢٥

لكن يجب أن أشرح لك فكرتي، لأن الأمر يتعلق على كل حال بمسألة هامة ولا يجوز لنا أن نتملص منها. لايمكنني اعتبار الأفكار بمثابة كرات التنس أو عملة للمبادلات الاجتماعية. أنا لا أملك أية صفة اجتماعية. التفكير ليس لعبة. إذا دار الحديث بالصدفة حول موضوع يمسني في الصميم أصبح عندئذ متشدداً مفرط الحساسية ومضحكاً. وأوسيبيو يقول محقاً إني أصبح شخصاً لا يناقش. وأنا إن ندمت إلى أبعد حد على قول «ثرثرة ميتافيزيقية» فإني لست نادماً أبداً على كوني غضبت.

أنرين يا رينيت -قبل النظر في المسألة الأدبية- لأنه لا يحق لنا أن نضع إنساناً مثل إبسن وسيداً مثل بيرانديللو في موضع مقارنة. لديك من جانب، شخص كانت مشاغله من أرفع مستوى. كان له دور اجتماعي، دور أخلاقي، وكان له تأثير. كتب ليفهم الناس مالم يرغبوا في فهمه. لقد تصدى لأكثر المشاكل حميمية، وخصوصاً مشكلة المرأة، وذلك بطريقة أعتقد أنها بديعة. في النهاية، وسواء نجح إبسن أم لم ينجح، فقد سعى ليمنحنا غذاء وليس لعبة حظ جديدة. مادة نتاجه تحدث على مستوى إنساني. وهو يستأثر باهتمامك

مباشرة سواء في حقيقته أم في أخطائه، على الأقل إذا كنت ترين أن حياتك الداخلية هي الجانب المهم من الحياة.

ومن جانب آخر، فإن بيرانديللو الذي ربما كام رجل مسرح متميزاً- وسنتحدث عن ذلك بعد قليل- والذي خُلق ووُجد في الحياة لتسليه أكابر المجتمع وإعطائهم فرصة للّهو بالميتافيزيقيا، كما كانوا يلهون من قبل بالسياسة وبالأفكار العامة، ومآسي الخيانة الزوجية. ليس هذا بأكثر سخفاً من لعبة البريدج. لكن لا يحق لك المقارنة مع إبسن. لم يسعَ إبسن لا إلى تشويقك ولا إلى إلى الترفيه عنك. بل سعى إلى افهامك أشياء كان يجدها حقيقية. وفي هذه الحالة، يتجاوز، الإنسان نتاجه كائناً ماكان.

ليكن واضحاً لديك تماماً أنني لم أكن أمارس انتقاداً شخصياً. . . ولم أكن أدعم وجهة نظر أدبية-أكون مدعياً لو قصدت هذا التعسف- لكن القضية هنا قضية أخلاقية نوعاًما.

بخصوص قيمة بيرانديللو. فإن الشيء الذي يعجبك فيه تحديداً هو ماأتحرز منه. سأرتب حججي:

١- الجرأة على نقل مشكلة ميتافيزيقية إلى خشبة المسرح. هو ليس أول من فعل ذلك. فقد قام بذلك قبله عدد من الحمقى مثل لونورمان.

٢- أصالة موضوعه- إنه موضوع مبتذل تتداوله الكتب الموجزه. وبمقدور صبي السابعة عشر عاماً، الذي لا يهضم دروسه جيداً ويخلط كل الأشياء، أن يمضي إلى أبعد من ذلك بكثير. بل إنه حتى يشعر بكبرياء نبيل بإنكاره للعالم الخارجي. (فقط لقد نسي أن يحفظ معنى كلمة وجود في كتابه). ٠

٣- أهمية هذا الموضوع. - معدومة في مسرحية بيرانديللو. فهو إما أن يرجع إلى موضوع مبتذل ليس حتى بالفلسفي، أو لا معنى له.

آ)- موضوع مبتذل: كنت تعلمين قبل بيرانديللو أن كل صديق من أصدقائنا يرانا بشكل مختلف لأن كلاًّ منهم يوقظ فينا مشاعر مختلفة، ولأن الفرد بالنسبة للآخر هو مجموع ردود الأفعال التي يستثيرها لديه مثلما أن تكون الطاولة، على الصعيد المادي، حاصل ردود الأفعال المرئية والملموسة التي تستثيرها لديك. من البديهي ألاّ يكون لدينا إدراك «للكائن بذاته» «للطاولةبذاتها». كنت تعلمين قبل بيرانديللو أن عشرة شهود لديهم عشر روايات للمشهد نفسه. وهذا لم يعد مشكلة ميتافيزيقية

ب)- أو أن تكون مشكلة بيرانديللو هي بالفعل

ميتافيزيقية، وتخص «الحقيقة بذاتها»، ولأنها لم تُطرح بشكل جيد من قبله، لم يعد لها أي معنى.

سأتناول مشكلة مماثلة وأكثر بساطة، مشكلة وجود العالم الخارجي، وجود طاولتنا مثلاً. هل هي موجودة «بذاتها» أم غير موجودة؟ ينقسم العمل الذي يجب القيام به إلى قسمين

أ)- فهم دقيق لما تعنينه من كلمة «وجود» أو «عدم وجود». وتعريف دقيق لكلمة «وجود». من البديهي تماماً أنك حتى إذا توصلت إلى عدم وجود العالم الخارجي، فإنه لن يكون لديك نية القصد بعدم إمكانية الاصطدام بالطاولة. لـ «الوجود» هنا معنى خاص.

ب)- حل المشكلة.

ربما كان الجزء الأول هو الأصعب، ويتطلب تعوداً كبيراً على التجريد. فإن استبعدته، فإنه لن يعود لأي شيء تقولينه فيما بعد معنى. وبيرانديللو رواغ فيما يتعلق بالمعنى. ولم يكن ليستطيع فعل شيء آخر. كيف تريدين أن تنقلي إلى المسرح هذا الحد؟ والمسألة ليست مطروحة في عمله نهائياً. بالتالي لا يمكن أن يكون لمسرحيته معنى.

هناك ما هو أدهى : فهو حتى لو تمكن من معالجتها فإنه كان سيتملص طوعاً في تعريفه للحقيقة. في الواقع لا يمكنك الانتقال من المشكلة الميتافيزيقية إلى الانفعال الدرامي إلا عبر التباس في الكلمات، عبر خداعك لذاتك، ونقل ما ليس له أية صلة بالمشاعر إلى المستوى العاطفي. إن التلميذ الذي «يضطرب» لدى معرفته بأن العالم الخارجي قد لا يكون موجوداً، يخدع نفسه فيما يتعلق بكلمة وجود. إنه يعتقد اعتقاداً مبهماً أنه سوف يتعلم عبور الجدران، أو شيئاً من هذا القبيل لا يمكن تحديده. ويعتقد أن هذه الدراسة تمس معطياته العملية، تمس الحياة اليومية. وهذا لكي يستخلص منها إحساساً مزوراً ونشوة مزورة.

أترين الخطأ؟ إنه خطأ يقع على المستوى الأولي. فأنت تطبقين على التعريف الشائع لكلمة «حقيقة»، ولكلمة «وجود»، منطقاً لا يمكن تطبيقه إلا على تعريفها المجرد جداً في الميتافيزيقيا. ولم يعد الموضوع يتعلق بنفس المسألة إطلاقاً. وبهذه الطريقة تقلبين رأساً على عقب مفاهيم ليس من المفروض أن تقلب لأنها صحيحة على مستواها الذي هو مستوى التجربة الحسية.

عندما تقولين «الطاولة موجودة» فإنك تعنين « تعلمت منذ الطفولة أن أشعر في شروط معينة بمجموعة ردود أفعال

أطلق على مسببها اسم«طاولة». وهذا ليس حتى صحيحاً أو خاطئاً: هذا واقع. لا يمكنك إنكار هذا الوجود الذي تتمتع به الطاولة.

في الميتافيزيقيا على العكس، قد تعرّفين هذا الوجود بشكل مختلف، ولكن بالضبط لأن الموضوع لم يعد نفسه، والنتائج التي ستتوصلين إليها عند محاكمة مفهوم الطاولة(بالمعنى الميتافيزيقي) غير قابلة للتطبيق على الطاولة(بالمعنى الشائع). إن التلفيق الدرامي هو اعتبارها نتائج صالحة مع تجاهل التعاريف. أنت بهذا الشكل تخربين جميع المفاهيم العامة للمشاهد وتجعلينه يشعر بدوار كبير. لا يتعدى الأمر الحيلة التي ليست حتى بالماكرة. لأن أي تلميذ فلسفة أو رياضيات قد مارس مائة مرة هذا الخلط. لقد صنع بيرانديللو سلطة حقيقية عن طريق خلط المعاني المختلفة لكلمة«حقيقة». لا أقبل اعتبار ذلك عملاً هاماً. وبطله ذاك والذي أراده ساخراً، متفوقاً وشكاكاً، هو ببساطة أحمق. إن أول صفة للإنسان الذكي هي أن يفهم لغة الآخرين ويكلمهم بها. لكن بما أن أحداً في هذه المسرحية لا يعرف بالضبط ماذا يريد أن يقول، فقد يدوم عدم الفهم طويلاً.

٤- يبدو أنك تعتقدين أنه من الجميل التجرؤ على نقل مشكلة ميتافيزيقية إلى خشبة المسرح، بدلاً من قصص النساء

العاديات. حسناً أنا لا أعتقد ذلك. قصص النساء العاديات، على الأقل، تهم الناس. لكنهم إذا ارادوا الدخول في الميتافيزيقيا فيلشتروا كتباً عنها وليدرسوها. غير أن فهم «الميتافيزيقيا» ليس هو ما يرغبون به على الإطلاق. فهو يتطلب مجهوداً ولا ينطوي إلا على متعة ذهنية. وهم لا يبالون بذلك. ما يريدونه تحديداً هو الكف عن فهم شيء من أي شيء، والشعور بشقلبة جميع مفهوماتهم رأساً على عقب. عندها يقولون: «كم هذا مثير للفضول...» ويحسون بشيء من الرعب.

أتفهمين لماذا أرى قضية بيرانديللو مهمةً؟ لماذا أرى أن الأمر يتعدى مجرد نقدٍ لنصٍ مسرحي؟ إنها نوع من المسائل الأخلاقية.

منذ بضع سنين استحوذ أكابر المجتمع، تماماً لنفس الأسباب، على أنشتاين التعِس. أرادوا الكف عن فهم شيء من أي شيء، أرادوا معاناة حالة من القلق العظيم، والشعور بِـ «المجهول». كان أنشتاين بالنسبة لهم فقيراً من الدراويش. وتلك المعطيات الرياضية البحتة التي، صحيحةً كانت أم خاطئة، ليس لها على كل حال من معنى، إلا على الصعيد الرياضي، نقلها أشباه بيرانديللو عبر خلط طوعي إلى مستوى

المعرفة العامة. وصار الأكابر فريسة للقلق. كما لو أن أنشتاين كان سيرشدهم إلى طريق أقصر من الخط المستقيم للذهاب من الكونكورد إلى الباستيل، ويدلُّهم إلى حيلة تمكّنهم من عبور الجدران أو من الرجوع بالزمن إلى الوراء.

هذا يذكرني برحلة جميلة: حين صادفت في زاوية إحدى المقطورات، زوجة مقدم تملك بقالية. كانت صغيرة وخجولة. وجلست ترفو جوارباً وتلقي التحيات على معارفها... وبجانبها جلست زوجة ملازم نشطة تتحدث معها مراعاةً لها: كانت تشرح لها... أنشتاين.

كان أمراً مدهشاً.

أترين يا رينيت، إننا لا نستطيع أن نتوصل إلى دقة وصحة فكرنا إلا عبر عمل منضبط ومستمر، وهذا على كل حال هو أثمن ما نملكه، وما يجب أن يكون الأثمن. لكنك ستلاحظين أن الناس إن سعوا لتنمية معلوماتهم، وزيادة معرفتهم، ومهارتهم اللغوية، فإنهم تقريباً لا يسعون أبداً لتنمية ذكائهم. إنهم يريدون أن يحاكموا بشكل صحيح وليس أن يفكروا بشكل صحيح. وهم بذلك يخطئون.

لهذا السبب يجب أن نحب إبسن الذي بشكل إنتاجه مجهوداً نحو فهمٍ إنساني، والامتناع عن بيرانديللو، وعن

جميع النشوات المزيفة: الأمر صعب. فما هو غامض أكثر إغراء مما هو واضح. ومن بين تفسيرين لظاهرة ما يقف الناس غريزياً إلى جانب التفسير الخفي المستتر. لأن التفسير الآخر، الحقيقي، بسيط وباهت ولا يوقف شعر الرأس من الرعب. المفارقة أشد إغواء من التفسير الحقيقي والناس يفضلونها. ماأقوله هنا عام جداً. كثير من الأخطاء في الحكم تحددها هذه الحاجة. الحاجة للاستئثار بالأفكار، ليس لفهمها بل للانبهار بها. بوسعنا المضي بعيداً جداً ضمن هذا المنطق. بوسعنا تقريباً القول أن ما يدهش، ما يغوي، كثيراً ما يكون قابلاً للوقوع في الخطأ. الصفة الأولى التي تؤهل للفهم هي نوع من عدم الاهتمام، من نسيان الذات. أكابر المجتمع من جهتهم، يستخدمون العلم، والفن والفلسفة كما يستخدمون العاهرات. بيرانديللو هو عاهرة نوعاً ما.

عزيزتي رينبت، اغفري لي هذه الرسالة بأكملها. لا تحقدي علي. اغفري لي أيضاً أني تكلمت عن «الثرثرة المبتافيزيقية». أنا لا أرى في هذه المسائل لعبة اجتماعية. أعتقد أنها ذات أهمية كبيرة. وليس هناك أية مصلحة في اللجوء إلى الإغواء بجمل جميلة متناقضة تتبعها تنازلات مهذبة. ويقول الأكابر «لقد أثّرنا بعض الأفكار». إنهم يثيرون اشمئزازي.

أحب الناس الذين تجعلهم حاجتهم لإطعام أنفسهم وإطعام أطفالهم حتى نهاية الشهر، أكثر قرباً من الحياة. إنهم يعرفون عنها أكثر. بالأمس وقفت في موقف الباص قريباً من سيدة محاطة بخمسة أولاد. كانت تعلمهم أشياء كثيرة، وتعلمني أنا أيضاً. الأكابر لم يسبق أن علموني شيئاً أبداً.

أمس مساءً تبادلت الحديث مع بائعة هوى مسكينة. قالت لي: «أنا عارضة أزياء في دريسكول. أكسب ستمائة فرنك في الشهر. منذ فترة قريبة هجرني زوجي وحيدة مع طفلي. واضطررت، كي أعمل، أن أودع الطفل عند سيدة. يكلفني ذلك ثلاثمائة فرنك في الشهر. يبقى لي منها ثلاثمائة. ماذا بوسعي أن أفعل إضافة إلى ذلك؟ ليس هناك امرأة في فرنسا لا يصل دخلها حتى الألف فرنك في الشهر. لذلك أعمل بائعة هوى. أحاول ذلك. آأوي إلى فراشي في الخامسة صباحاً وليس لدي إلا ثلاث ساعات للنوم بسبب مهنتي كعارضة أزياء. إني لا أتدبر أموري كما يجب. أنا خجولة والزملاء يسخرون مني. حالياً أنا مصابة بالتهاب قصبات وشيء ما في الرئة اليسرى. لن يدوم الأمر طويلاً. لهذا سأدخل للعمل في «مؤسسة دعارة» لأني لا أعرف كيف أصطاد الزبائن ولأني لم أعد أحتمل. هناك يختارونني إذا

رغبوا بذلك. عن أي شيء آخر تريدني أن أبحث؟ سأعيش أنا وطفلي، وهذا لوحده انجاز».

في الواقع هذا «إنجاز». وبمَ تريدينني أن أجيب؟

هذه قصة تافهة بالنسبة للناس الذين لا يستمدون من هذه القصص سوى ما يستمدونه من مشاهد الغرام في (الميوزيك هول): انفعال، وشفقة مزيفة. هذا شبيه بعام1880 بشدة. إنه الميلودراما النموذجية. قصص البؤس تخدم مشاعرهم مثلما تخدمها ميتافيزيقيا السيد بيرانديللو. وهذه الميتافيزيقيا لم تعد حتى على الموضة.

يذكّرني ذلك بحديث مع إحدى السيدات نقله ليون ورِث: «لكن في النهاية أيها السيد العزيز، أيها السيد العزيز، إذا قلت إنك تحب البشر، فلمَ تنتزع منهم الله، عزاءهم الأكبر؟

● لكي يبحثوا عن أنواع عزاء غيره، يا سيدتي، ولكي يحطموا وجهكِ»

أجد هذا جيداً جداً.

عزيزتي رينيت، لا يجب أن تحقدي علي. صحيح أني لست متسامحاً أبداً، كما يقول أوسيبيو، ولكن ذلك ليس

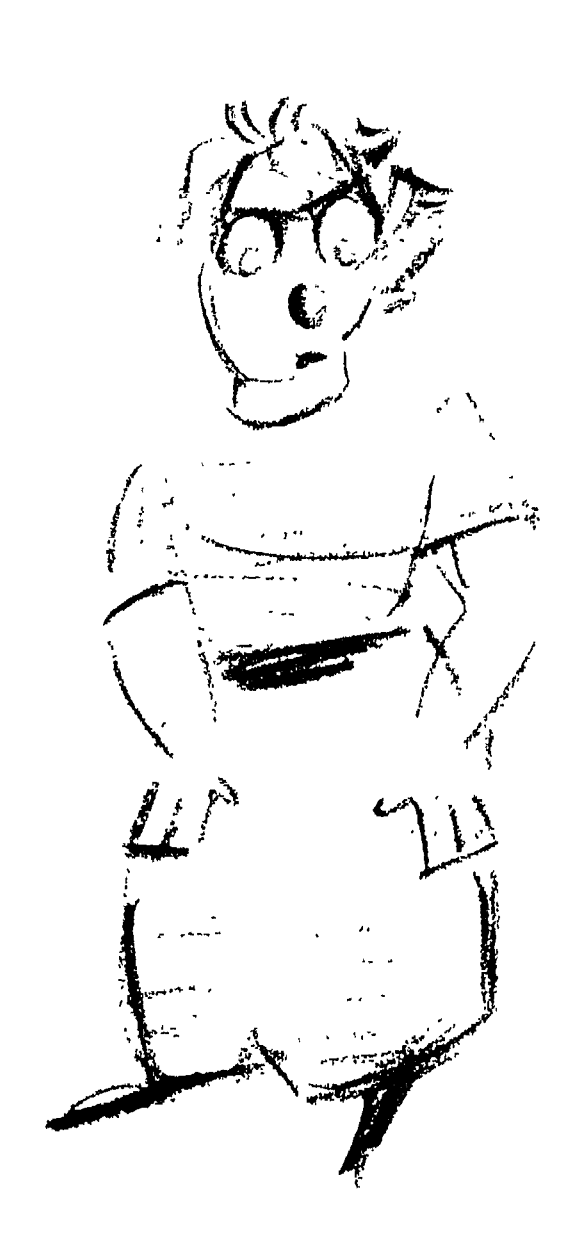
بدافع الغرور والتكبر، بل لأن هذا التسامح تحديداً، هو الشيء الذي يثير قَرفي. يجب أن نحب الأشياء و الافكار لذاتها وليس على سبيل اللهو.

أنا دبٌّ تنقصه الكياسة. وهذا يجعلني كئيباً جداً لأسباب كثيرة.

إلى اللقاء يا رينيت. ثقي بصداقة هي جزء كبير من نفسي.

أنطوان

اتصلت بك منذ لحظات. سأعيد لك الرواية غداً. لكن بيرانديللو يجثم على قلبي ومع ذلك أبعث لك هذه الرسالة.



(٦)

الدائرة القومية لجيوش الأرض والبحر

46، شارع الأوبرا

[تشرين أول ١٩٢٦]

استلمت رسالتك، رينيت، وفي الحال أرسلت الرواية. لم أجرؤ أن أرفق بها أي تعليق لأني فكرت أن تأخري الطويل يجعلني أرى بشكل سيء وأن ذلك لم يكن ليمحو موضوع بيرانديللو. كذلك فإن إرسال ذلك «الكتاب الصغير»، قد أزعجني وصنعت به «ناراً صغيرة». . .

لم أكتب لك، هذا صحيح لكن ذلك لأنني آأمل أكثر مما يجب بتلقي ردودك. ولأن الآمال الخائبة لا تجدي نفعاً. اعذريني. لا تظني أن سبب ذلك نسياني لك بل إن العكس هو الصحيح. وليس لطيفاً أن تقولي لي ذلك.

لم أذهب إلى هناك كوني فكرت أنه سيتواجد هناك كثير من الناس، كثيرة أرويها لك. وإن عدت بها فسيكون ذلك محزناً.



أترين، لست شخصاً لطيفاً جداً إنني على الأكثر مناسب لقيادة طائرتي مثل دبٍّ على بعض الخطوط وإلى أبعد نقطه ممكنة.

غداً أغادر باريس. أنشأ لاتيكوير ثلاثة خطوط جديدة في الجزائر، اسبانيا، وأمريكا الجنوبية. سيأخذني للعمل على أحدها. وسأنتظر استدعاءه لي في «آغي» *. ضقت ذرعاً بهذه الباريس التي تعِدُ بالكثير ولا تفي بشيء إطلاقاً. ومن ثم فالخطأ خطأي. كنت أتمنى أن أكتب لك رسالة لطيفة. فاعذريني على هذه. لكن معنوياتي مقيتة هذا المساء.

آمل أنك ستجيبيني، ربما، برسالة صغيرة؟

ثقي بصداقة لا شك أني لا أعرف أن أبرهن عنها بشكل جيد

أنطوان

قصر آل آغي في منطقة آغي- فار

---

* في بيت السيدة آغي الأخت الأصغر لِسانت إكزوبري

(٧)

شركة كبرى مقاهي تولوز المغفلة

١٥ ، ساحة ويلسون

مقهى- مطعم لافاييت، [تشرين الأول ١٩٢٦]

رينيت هاأنذا في تولوز. أحتفظ من تلك الأيام القليلة في باريس بذكرى فقيرة. بعض الزيارات، والسباقات، والامتحانات. والانتقال من غرفتي في الفندق. النقل المعقد للصناديق الشديدة الثقل والمليئة بالكتب وبأكداس من الأغراض العجيبة التي لم أعرف كيف أتحرر منها. طابعة حفر، وجهاز لصنع السجائر، لن يلزماني أبداً، لكني شعرت بشكل مفاجيء بحاجة لا تقاوم إليهما. لم أشعر إلا وقد بقي لي فقط خمس عشرة دقيقةً قبل موعد القطار. خمس عشرة دقيقة جوفاء.

أذكر، في عصر ذلك اليوم حين بقيت خارج دائرة الحياة. حيث مضى أوسيبيو إلى فونتينبلو، «م». ذهبتْ إلى السينما، وأنت إلى الحفلة الموسيقية. وأنا وحيد على رصيف مالاكيه قرب الهاتف الذي لا حياة فيه. كان معي قبعتي

ومعطفي. وتملكني – من إبقائهما على مقعد- شعور كبير بعدم الارتياح.

الآن جئت أخيراً للجلوس بهدوء إلى جانبك. الأمر الذي لم تسمحي لي به هناك. وكنت تلومينني لأنني لا أتملق أناساً كنت أجد متعة قصوى في السخرية منهم، والذين كانوا يسرقون مني وجودك- لا أستطيع أن أحدد حنقي الشديد. ربما من كونك ضنينة بنفسك إلى هذا الحد. التكاسل أمام الكتابة: بالطبع. لكننا نشعر بالتكاسل لأنه ليس لدينا ما نقوله. ونفس السبب يجعلنا نتحمل رؤية الناس ضمن مجموعات. وأنا جئت مع كومة من الحقائب التي لم يمكنني فتحها أبداً. من الغباء أن ألومك على ذلك: فأنا من يتحمل خطأ جلب كل ذلك.

من ناحية أخرى، أشعر هذا المساء بطمأنينه فلسفية في سكينة البعد. كما أني مصاب بنزلة برد. وتلفّني الحمّى بشكل لطيف. ولدي ألم بسيط في الرأس، تماما بالقدر الذي يجعلني أرأف بنفسي. وأنا قادم لأجلس بجانبك الأمر الذي لن تسمحي به أبضاً دون شك. الأمر الذي يضايقك. لكن لو تعلمين إلى أي حدٍ أسخر من ذلك. لأني أشكّلك هذا المساء على هواي. ولو تعلمين كم انت لطيفه. في الحقيقة، تلك هي أحاديثي

الوحيدة معك. الاحاديث التي أختلقها في نفسي. وأنت بذلك القدر من الصبر. ومن الذكاء: إنك تفهمين كل شيء. وأنا أصبح ثرثاراً: هذا رائع بالنسبة لي. ياله من ثأر أقتص به من صديقتي المختَلَقَة.

قد يكون سبب تمسكي الشديد بك هو كوني أختلقك. مع ذلك فإنك أحياناً تطابقين صورتك. فأنت على كل حال من يغذّي هذه الصورة. وأمسيتك الموسيقية تمنح هذه الصديقة التي لدي هذا المساء قدراً كبيراً من الحياة. إنك ممتزجة قليلاً بِـ أوفنباخ. ولون الأباجور ينعكس عليك. لا تتذمري. هذا ليس سيئاً. ثم إنه لا يعنيك.

في الحقيقة أكتب لك كل ذلك- وهو صحيح- وبي رغبة في إثارة غيظك. وسوف أكون مرة أخرى حزيناً. لكن مرضي دمر أهمية الأشياء هذا المساء. لست أهلاً لحمل الكثير من الكآبة. هذا يجعل من السهل علي بالأحرى أن أقول لك أنك لست ظريفة. أقولها بخبث، دون مرارة- أنت لا تحبين كثيراً أن تعطي المرارة (أنت لا تحبين أن نعطي شيئاً أبداً).

اعلم جيداً أن هناك أناس ينزعجون عندما نأخذ الكثير منهم. هذا يبدو لهم افراط في الثقة أو عائقاً أمام استقلالهم. ما يدريني. وهذا يثير الفضول. أظن أنك إلى حدما من هذا

النوع . وإنه لمن المزعج لي كثيراً أن أجلس هذا المساء مقابلك وأحتفظ بك أسيرة . ياله من مصير! وعما قريب ستصبحين أسيرة في السنغال ، أترين هذا .

خسارة أن تكوني قادرة في بعض الأحيان على إيلامي قليلاً وألا أكون قادراً على حمايه نفسي جيداً . لأن صورتك ناعمة جداً هذا المساء . لو كنت أكتب الشعر لقلت كثيراً من الأشياء الجميلة . لقلت : «صورتك - من أول السطر - تزن وزن يمامة . . . » . شيء فاتن . وأيضاً شيء محبب . لا أعرف إن كنت تفهمين كم هذا فاتن . هذا الطير الذي أعطيت له صورة الشيء الذي لا يدوم . نفخة بسيطة ويصبح حراً . لسوء الحظ أحياناً يكون الأمر ثقيلاً كالبلاطه . أمام صندوق بريدي أنفخ . لكن البلاطة تثقل مع ذلك .

هو ذا إنك تستحقين مثل هذه الرسالة . وهي من ناحية أخرى ليست موجهة لك . وأنا يحق لي تماماً أن أتحدث مع نفسي . فتحت حقائبي قليلاً ولكن بطريقة مواربة .

الآن إذا كنتِ تتوقعين أن أقول لك تاريخ سفري وأخبرك كيف الطقس وما هي وجبة عشائي ، فإنك لن تحصلي على شيء . لدي في سان موريس صندوق كبير أطوي في

جوفه منذ كنت في السابعة، مشاريعي لكتابة التراجيديات في خمس فصول، والرسائل التي تصلني، وصوري. أي كل ما أحبه، وما أفكر فيه، وما أريد أن أتذكره. في بعض الأحيان أفرش كل شيء كيفما اتفق فوق أرض الغرفة، وأنبطح فأرى مجدداً أشياء كثيرة. ليس هناك ما له قيمة في حياتي سوى هذا الصندوق.

ما تبقى، كالطقس، ووجبات العشاء وما سأصير إليه، كله لا يعنيني.

لم يتبق لدي ما أقوله لصورتك.

أنطوان

(٨)

فلوريدا كورسال

شارع تانيري. المرقص الأكثر حداثة

طنجة، 4 تشرين أول 1926

رينيت، أسفت أني لم أتلق منك كلمة قبل سفري.

ذهبت هذا الصباح من تولوز، ولم أتمكن بعد من الاعتياد على فكرة وجودي في المغرب . . .

لا توجد حدود، ولا جمارك، ولا أشجار تتتابع إلى الوراء، لا شيء يثبّت فكرة انتقالك إلى بلد جديد. وهذا الملهى شبيه بغيره. باستثناء كون الناس يتكلمون فيه بالاسبانية.

غداً سأمضي إلى مكان أبعد.

متى سترغبين بالكتابة؟

أنطوان

(٩)

شركة مقاهي تولوز الكبرى المغفلة

15، ساحة نيلسون

تولوز، 1926/10/22

عزيزتي رينيت،

حتى لا تتهمينني بالنسيان إليك هذه الرسالة البطولية: (أصابعي متجمدة من البرد والعديد من فناجين القهوة بالقشدة لم تدفئني بعد)

بانتظار السفر في رحلة استطلاعية (عبور إلى الدار البيضاء ثم العودة) استلمت طائرات جديدة بإيصال. أنا في غاية السعادة. لكن العزلة التي في هذه البلاد كبيرة.

كوني صديقة واكتبي لي- هذا لن يعادل سهرة في شارع سان غيليوم إلا أنه سيسعدني جداً مع ذلك.

الطقس رديء يدعو للحزن.

عصر هذا اليوم قمت بتجارب لمدة ساعة على طائرة جديدة تحت مطر طوفاني وعلى ارتفاع مائة متر عن الأرض

ما كنتِ لتجدي أن الطيران أمر لطيف. كان بالأحرى أشبه بالاستحمام

أنت صديقة ظريفة لكني أعبر عن هذه الأشياء بشكل سيء للغاية. إني أفكر فيها فقط.

أنطوان

13، شارع آلزاس- لورين تولوز

(١٠)

الشركة المغفلة لكبرى مقاهي تولوز

15، ساحة ويلسون

مقهى لافاييت [تشرين أول 1926]

رينيت لست صديقة ظريفة. لماذا تعاندين في عدم الرد؟ لماذا عندما أتصل بكَ تصرخين بي «أهذا أنت؟ آ، نعم نهار سعيد. قل ما عندك بسرعة»؟

مع أنني معزول تماماً إلا أنك لا تبالين كثيراً بذلك.

كيف سيكون الأمر بعد بضعة أشهر. إني غاضب منك كثيراً، أكثر مما تظنين.

وصلت من الدار البيضاء. قد أعود إليها نهائياً. وربما أيضاً إلى السنغال.

لن أحكي لك عن رحلتي لأن لديك مشاغل أخرى. ربما يمنعك من الكتابة كونك تجدين لنفسك العذر الذي يلائمك مثلما يفعل أوسيبيو. (هذا يمنعكِ من الكتابة منذ أربع سنين).

مع ذلك اكتبي لي قبل أن أموت. فبعدها سيكون الأمر سيان تماماً بالنسبة لي وسأدعك وشأنك.

صديقك القديم

أنطوان



(١١)

الشركة المغفلة لكبرى مقاهي تولوز

15، ساحة ويلسون

مقهى لافاييت

تولوز في 24 تشرين أول 1926

رينيت، اغفري لي رسالة ذلك اليوم. أكتب لك اليوم مجدداً.

هاقد أمضيت يوم أحد رتيب إلى حد كافٍ. مطر لا ينقطع. كان يوم أحد خائباً لأني اضطررت للاستيقاظ في السادسة لآخذ شخصاً يُدعى بريغيه كي يرعى الغيوم. بانتهاء العشر دقائق أظهرَ بريغيه رغبة ملحّة في العودة إلى الحظيرة. (ها أنذا أتكلم مثل القسيس دوليل... أواه! الحياة في الريف!) ومن أجل عشر دقائق طيران، قضيت يوم أحد بأكمله وأنا أشعر بالنعاس. أمضيت نهاري في شراء أعواد الثقاب والسجائر والطوابع. بائعة التبغ التي في الجوار جميلة جداً، وصار لدي في غرفتي حتى الآن أكثر من ثلاثين علبة ثقاب وطوابع لأربعين سنة حصيلة كئيبة لثمانية أيام من الحب.

العلاقة مع بائعة التبغ. ياله من شيء جذاب. طاوله البيع جميلة كعرش. يشعر المرء أمامها أنه بعيد جدا وصغير جداً. ويسمع نفسه يقول بنشوة«أربعون سنتيماً. . . » ويلتمس ما يستطيع من كلمات الحب. أتساءل بأي شيء يمكن لبائعة تبغ أن تفكر؟

ربما لا تفكر بشيء هذا ما يبدو عليها.

كم أشتاق لأصدقائي! لدي القليل جداً منهم لذلك أتمسك بهم كثيراً. إن لم أرجع إلا بعد زمن طويل بلحية كبيره بيضاء فإنكم ستنسونني تماماً. وهذا يثير اشمئزازي لأنني لا أعلم إلى أين أذهب. ربما إلى آلياكانت، أو المغرب، أو داكار، كما تشاء الآلهة.

هذه الجملة التي كتبتها للتو سبّبت لي الكرب الشديد إلى درجة أني ذهبت لأتصل بك. بالطبع لم أجدك. أكنت ترتبين أدراجاً في مكان ما؟ هكذا دوماً عندما أحتاج إليك.

أتعلمين يا رينيت أن الطيران جميل وأن الذي يحدث هنا ليس لهواً. وهكذا أحبه أن يكون. كما أن الأمر ليس رياضة كما في مطار بورجيه بل شيئاً آخر، غير قابل للتفسير. إنه نوع من الحرب. انطلاق البريد في الصباح الباكر تحت المطر شيء جميل

وكذلك طيارو فريق الليل المترنحين تحت وطأة النعاس، والضباب فوق البيرينيه، والعاصفة التي سجلت في أسبانيا وستوقظ الطيار، وبعد الانطلاق بينما يحل بعض المشاكل نتبعثر في الطين. رينيت أرغب بالسفر رغبة شديدة. هو ذا كنت أود الاتصال. أعرف أني لا أجيد الحديث في الهاتف، وأني كنت سأقول «آلو... آلو...» لكي أتمالك نفسي. من المحزن أن يكون المرء أخرساً. أود أن أكون فتىً جميلاً. معشوقاً، بربطة عنق جميلة ومجموعة اسطوانات غرامافون. كان علي أن أتدرب عندما كنت أكثر شباباً. الآن فات الأوان. وأنا نادم فعلاً على ذلك. الآن وقد أصبحت أصلع، لم يعد هناك داع للمحاولة. أحلم بشكل حزين بواجهات محلات القمصان ومحلات الأحذية. تجربتي ستخدمني إذا حدث وتجسدنا ثانيةً. هذا ليس عزاءً.

أرغب كثيراً أن أكون محبوباً وأن ينظر إليّ كشخص فاتن وأن ينظر إلى أظافري بإعجاب. يداي مليئتان بالزيت، وأنا الوحيد الذي يراهما جميلتين.

أظن أن مونولوجي يزعجك. أنا حزين وسعيد في آن واحد وهذه الحالة لا تساعد على التعبير عن النفس بشكل واضح ومنطقي. وبما أني بعيد عن جميع أصدقائي وأعاني من

وحدة شديدة، يتولد لدي شعور بأني أحد الجدود البعيدين.

يجدر بك أن تكتبي لي، أتدرين ذلك؟

إلى اللقاء رينيت العزيزة.

أنطوان

13، شارع ألزاس لورين، تولوز.



(١٢)

الاينس

مصنع المثلجات الفاخرة

المركز الرئيسي

منديس نونييث، 4

آليكانت[تشرين الثاني 1926]

أمس كتبت لك ثلاث رسائل ومزقتها الواحدة بعد الأخرى. لا فائدة من قول أشياء كثيرة. بعدها اتصلت بك.

سأكتب لك هذا المساء رسالة أكثر تجرداً لأني أدرك جيداً أنه لا يجب الاعتماد عليك كثيراً. يجب أن تتوفر لديك الكثير من الشروط الملائمة حتى يتسنى لك مساعدة أحد. أنت لا تستطيعين أن تكتبي« هكذا ببساطة»، لقد شرحت لي ذلك وأنا، من جهة أخرى، لم أفهم جيداً. كنت ذاهباً إلى مكان أبعد قليلاً من آنيير أو غابة كولومب. ويختلف الأمر قليلاً، يا رينيت.

لا أعلم تماماً لماذا أكتب. لدي حاجة كبيرة إلى صداقة أستودعها ما يحدث لي من أمور صغيرة. مع من أتشارك. ما عدت أعرف لماذا اخترتك. إنك غريبة عني جداً. ورقتي

تعكس لي جملي التي أخطها. لم أعد قادراً على تخيل الوجه المنكبّ الذي يقرأ، لم أعد قادراً أن أحود بشمسي، بقطع حلواي وبأحلامي. أكتب رسالتي ببطء شديد لكي أبقى مستيقظاً دون أن يكون عندي إيمان شديد بها. ربما أكتب لنفسي

لن أسافر الأربعاء بل الجمعة. إنني مسرور جداً مع أن الوقت تجاوز منتصف الليل. هذا يذكرني بأحلامي بالرحيل وأنا صبي. في الريف، عندما يلعب «الأشخاص الكبار» لعبة البريدج في ضوء مصباح. أما الأطفال فيكونون هم في غاية الرصانة. على صفحة أحد الكتب كنت أرى الصين خضراء واليابان زرقاء، والبلدان بقعتان عميقتان. وعلى الصفحة المقابلة كتب: «للماليزيين عيون سوداء» «للهايتيين عيون زرقاء». لا شك أني أخطيء في الألوان لكني في ذلك المساء أدركت جيداً أني لم أكن قد رأيت عيوناً سوداء حقيقية أو زرقاء حقيقية أبداً. وقد حزرت أن تلك التي كنت أراها حولي، كانت نسخاً غير أصلية لذا أسافر إلى حد ما بحثاً عنها.

ثم إن هناك طريقة أخرى للسفر، وبالأمس كنت بعيدا جداً. بعيد إلى درجة أحس معها أني مازلت على الهامش، وأني ناء قليلاً، ومتسامح قليلاً. فكرت بقتل نفسي كما لم

يسبق لي أن فعلت، حتى يوم سقوطي. حين كنت أعاود النزول من ارتفاع ثلاثة أميال عندما شعرت بصدمة- اعتقدت أن صدعاً قد حدث- وفقدت طائرتي توازنها ندريجياً. عندما صرت على نحو ألفي متر كانت مقابض القيادة في وضعيتها القصوى. اختفت خطوط العرض. قدّرت أن السقوط كان مؤكداً إلى درجة أني سجلت بقلم حبر وبشكل واضح فوق إطار أحد المؤشرات: «هناك صدع. ابحثوا. استحالة تجنب السقوط». لم أكن أريد أن توجّه لي تهمة قتل نفسي بسبب قلة الحذر، كانت هذه الفكرة تزعجني. نظرت بنوع من الدهشة إلى الحقول التي كنت سأتحطم فوقها. كان ذلك شيئاً جديداً بالنسبة لي. أحسست أنني صرت أبيض تماماً، أملس تماماً من الخوف. خوف لا قرار له لكنه ليس مقيتاً. إدراك جديد، يصعب تعريفه.

لم يكن صدعاً واستطعت الصمود حتى الأرض. لكني لم أصدق ولا في أي لحظة. عندما قفزت من الطائرة لم أقل شيئاً. كنت مشمئزاً من كل شيء وكنت أعتقد أن أحداً لن يفهمني أبداً. في الجوهري على أقل تقدير. إلى أي عالم دخلت بالحيلة. عالم لا نصفه كثيراً. وتعجز الكلمات عن قول تلك الحقول وتلك الشمس الهادئة. كيف أقول «فهمت

الحقول والشمس. . . » مع ذلك فهذا ما كان . شعرت لثوانٍ بالهدوء الباهر مكتملاً ذاك النهار. نهار شيّد بصلابة مثل بيت أحسست فيه أني في بيتي، وأني فيه على ما يرام، وأنني سوف أطرد منه. نهار بشمسه الصباحية وعلوّ سمائه، وتلك الأرض حيث كانت تنسج أثلام رفيعة. يالها من مهنة عذبة!

الآن في الشوارع كنت أصادف عمال نظافة ينظفون حصتهم من هذا العالم. كنت ممتناً لهم على ذلك. وعساكر المدينة كانوا يحفظون الأمن ضمن مائة متر من الأرض. وكان تنظيم هذا البيت بهذه الطريقة أمر مليء بالمعنى. كنت عائداً، محمياً، ومحباً للحياة كثيراً.

وأنت لن تفهمي، ولن يفهم أحد. وأود لو أرغم أحداً على الفهم. لماذا تكونين أنت ذلك الشخص الذي لا يهمه الأمر أبداً؟ والذي سينظر شارداً.

هذا يذكّرني بوجه. كنت قد قلت شيئاً هو بالنسبة لي أساسي للغاية، شيئاً في غاية التلهف إلى درجة أني نظرت إلى فكرتي وهي تستمرّ في ذلك الوجه. كنت أقرأ التعبيرات وكل ما كانت توقظه تلك الفكرة في ذلك الوجه. وفجأة شعرت بها تهرب في الرمال. لم تعد تترك أثراً للمتعة أو أثراً للانزعاج،

ولا لمحاولة الفهم. شعرت بلحظة الشرود بالضبط. شرود سريع إلى درجة أنه كان يعني شيئاً ما وحلمت بتلك العبارة الرائعة «التخلص من غيمة في الرأس». حقل قمح يغير ضوءه.

أحمل نيتشيه تحت إبطي. أحب هذا الشخص حباً هائلاً. وهذه الوحدة. سأتمدد على رمال شاطيء كاب جوبي وأقرأ نيتشه. لديه أشياء أحبها كثيراً «قلبي الذي يَهلك فيه صَيفي، صيفي القصير، الحار، الكئيب، والسعيد...» أود أن تشاركي أيضاً في هذا الهوى لكنك لا تشاركي بالكثير.

لا أظن أنك ستردي على هذه الرسالة مع أنني لن أسافر قبل يوم الجمعة، لأنك إذا كنت قد كتبتِ لي البارحة، تكونين قد أديت واجبك.

(١٣)

تولوز 24 [تشرين الأول 1926]

عدت لتوي. لم أجد شيئاً منك. لا تكتبي لي لا يوجد ما يستحق العناء. انظري، لقطع أي أمل، لن أعطيك أي عنوان لي هناك. إني مضحك للغاية. فلا معنى لأن يتسول الإنسان الصداقة. أنا كنت بحاجة أن أكتب لك وأنت لم تكوني بحاجة لذلك. هذا أمر يحدث. ربما أراك بشكل غير منصف لكني هكذا سأشعر بندم أقل عليك وهذا أفضل. سوف لن أكتب لك بعد الآن، حتى لو كتبتِ لي، لا يعنيني الأمر: أنت لم تكوني قادرة أن تفعلي ذلك حتى في ذلك المساء الموعود. لا أعرف لماذا أبعث هذه الرسالة. المرة الماضية مزقت ثلاث رسائل ويمكنني ببساطة تمزيق واحدة رابعة. حسناً! إنه الوداع. ولا يخطر ببالك أنك مضطرة أن تعاقبي نفسك بالكتابة: الآن أعتقد أن الأمر سيان عندي. خطأي رينيت هو أنني طالبتك يوماً بالكثير. أنني تأمّلت منك الكثير... الآن أدرك ذلك وهذا يدعو للأسف. إني أخسر صداقة جيدة ولا أحقد عليك. الخطأ خطأي إن لم أستطع العودة إلى الوراء والاكتفاء بالقليل من الأشياء.

أنطوان



(١٤)

شركة كبرى مقاهي تولوز المغفلة

15، ساحة ويلسون

مقهى ومطعم لافاييت [كانون أول 1926]

رينيت سامحيني . . . في الوقت الذي كنت أكتب لك فيه، كنتِ تكتبين لي –رسالة أسعدتني سعادة كبيرة.

رينيت يجب أن تكتبي لي أحياناً . . .

قمت برحلة طريفة. انطلقت من تولوز في الرابعة صباحاً وكنت ماأزال أشعر بالنعاس وعاودت النوم في طنجة. لم يتح لي الوقت لا للتلاؤم مع اسبانيا ولا مع المغرب بدا لي العرب وجمالهم كأنهم خارجين من سيرك. تأملي: رحلة دون جمارك، دون حدود، رحلة لثلاثة أميال لا تشعرين أن الطريق ينساب فيها إلى الوراء. رحلة ثابتة.

حياة طريفة ألاّ يكون المرء في أي مكان محلقاً فوق أرض مغفلة موحّدة الشكل، وعندما يحاول اكتشاف زاوية صغيرة من المغرب، وزاوية صغيرة من أسبانيا، يجلب شطيرة بمثابة ذكرى لكل شيء.

لأنني في الذهاب لم أمضي سوى عشر دقائق في

آليكانت. لكني عند العودة نمت فيها. والآن اسبانيا -كل ما أعرفه عنها- هو بيبيتا السيدة التي نستأجر عندها. يقول الرفاق عنها «إنها مقطورة جميلة». لكني لا أجد أسبانيا جميلة. . .

من الطريف أن يدخل المرء إلى البلاد من داخلها، أن يولد فيها تقريباً. لا يوجد هنا أسماء محطات يتغير وقعها، لا يوجد محصلوا ضرائب، ولا حوذيوا عربات يستقبلونك بالحفاوة المطلوبة. وبينما لا يزال المرء شاعراً بالخدر، ينخرط دون تمهيد في تفاصيل الحياة اليومية للمدينة الصغيرة. وهذا بالكاد إذا دخلها عبر الضواحي أسبانيا يارينيت، ليست سوى نادل في مقهى وبيبيتا محدودة الجمال.

إنها بلد كئيب تقريباً.

هي أيضاً بلد كثير النتوءات لا ينصح بحدوث عطل على أرضها. من غرفة منخفضة، حتى أنه في بعض النقاط يمكن محاذاة القمم عمودياً. قال لي رميل بقوة «هناك لا يوجد حتى ما تقتل نفسك به. إنك مضطر أن تغرق».

وتلك الجملة الأخرى. عشية سفري، اتصلت الإدارة بي لإعطائي بعض النصائح. من بينها نصيحة عدم ترك الغيوم تنغلق ثانية تحتي، بل المرور من تحتها، في الوقت المناسب، من

خلال الثغرة الأخيرة. حتى لو اضطرك الأمر للطيران على ارتفاع خمسين متراً. (في منطقة كثيرة الجبال مثل اسبانيا، تنتقع قمم جبالها في الغيوم، وعند معاودة النزول بسبب عطل أو غيره، تنسحق الطائرة عليها دون أن يراها الطيار). قيل لي: «الطيران فوق بحر النجوم بواسطه البوصلة شيء جميل، ولكن تذكّر: تحتها هو الموت». والآن عندما أرى أحد تلك السهول البيضاء شديدة الحلاوة، شديدة الهدوء وأفكر بهذه الكلمات «تحتها هو الموت». يتولد لدي شعور بالعزلة أظن أن من الصعب بلوغه -شعور يكاد يكون رائعاً.

لن تجدي هنا الأسلوب المنبع في مطار بورجيه، ولا العقلية التي تسيّر مطار بورجيه. الأمر هنا مختلف كثيراً. أكثر صعوبة إنما أفضل.

رينيت أما بالنسبة لتولوز فإني أشقّ فيها طريقي الريفي الصغير. أمرّ إلى يمين ذلك المصباح وفي المقهى أجلس على تلك الكرسي. أشتري صحيفتي من نفس الكشك وكل مرة أقول نفس الجملة لبائعة الصحف. ونفس الرفاق، رينيت... إلى أن أشعر بحاجة هائلة للهرب، وللتجدد. لذا سأهاجر إلى مقهى آخر، أو مصباح آخر، أو كشك آخر وأخترع جملة جديدة أقولها لبائعة الصحف. جملة أجمل بكثير.

سرعان ماأضجر من نفسي، رينيت، لذا فإني لن أعمل شيئاً أبداً في الحياة، ولدي توق شديد للحرية.

وهؤلاء الرفاق الذين يفكرون دوماً بنفس الطريقة يسمّمونني ولهذا السبب ليس لدي سوى صديقين أو ثلاثة -ومعهم أحس بالسلام ولهذا السبب يجب أن تكتبي لي أحياناً حتى لو كان في ذلك بطولة عظيمة من قبلك لأنك -رينيت- صديقة قديمة...

أنطوان



(١٥)

بالماريوم

بربينيان

علبة الرسائل . بوفيه بارد

ملتقى السادة المسافرين والسادة التجار

[كانون الأول 1926]

رينيت ، كم أنت فتاة قليلة اللطف إزائي . لن أكتب لكِ بعد لأني لا أحب خيبة الأمل المترافقة مع كل بريد . بالنسبة لكِ ليس لهذا أهمية لكني وحيد هنا ومتعتي تقوم على أشياء صغيرة . ثم إنك ترفضين الرسائل التي تشبه المحادثة . وأنا تضجرني رسائل المجاملة التي ترسل كل ثلاثة أشهر . تقولين لنفسك «يا إلهي ! رسالة أخرى يجب الرد عليها» . لهذا السبب لا داعٍ . ثم إنه ربما كان في ذلك شيء ما يسبب لك الإزعاج : الناس معقدون لدرجة كبيرة .

من عدم الحكمة إعطاء الناس هذا الحق الذي كنت تتحدثين عنه -الحق في إيلامك قليلاً . إنهم يستفيدون من

ذلك . . أظن أني أبدو أحمق تماماً إذ أقول لك هذا . لكن الأمر سيان عندي .

تعطّلت طائرتي في بربينيان . غداً أعود إلى تولوز . بربينيان كئيبة كآبة مطلقة هذا المساء . تسكعت في حارات صاعدة . كانت تكتظ بمحلات بيع الخردوات ولا أعرف ما هو أكثر بؤساً من هذه الأمكنة . بائعات الخردة يبعن خيوطاً لقاء ثلاثة قروش وإبراً لقاء قرشين ، وليس لديهن أي أمل بالحصول على سيارة (هسبانو) . وأولئك اللواتي يغذيهنّ ذلك الأمل يمضين حياتهن جالسات مقابل ستارة النافذة . ستارة من الدانتيل . ويوجد في غرفهنّ من مكمّلات المدفأة ما هو أكثر أزلية من سجان . وكل حياتهن مصنوعة من العادات . إنه سجن حقيقي . لهذا أخاف جداً من اكتساب العادات . لكنها دون شك تدفّيء قليلاً . وأفتقد كثيراً إلى شيء منها . غداً أنام في تولوز ، وبعد غد في آليكانت وما عدت أتعرف إلى نفسي أبداً .

أوج السعادة هو أن تكون شخصاً مقداماً أحمق يعود من الصيد ويفرك يديه أمام النار مستمتعاً بالدفء ويمضي ربع ساعة في حشو غليونه . وحتى هذا أفضل من أي يكون المرء عشيق امرأة تكبره سناً . اكتشفت ذلك هذا المساء .

كانت كل ثلوج البيرينيه وردية اللون في القمة. كذلك كانت مستنقعات ناربون البعيدة. تخيلي جعلت محركي يعمل ببطء ونركت نفسي أنحدر باتجاه بربينيان التي كانت زرقاء. كان شيئاً رائعاً. لكنه تافه جداً من أجل الوصف. لا يمكنك أن تتخيلي حلاوة النزول عندما لا نعود نخشى حدوث عطل أو نخشى الضباب أو تلك الغيوم المنخفضة المغلقة تحتك فوق الجبال، الغيوم التي «تحتها يقع الموت». قد يفلت المحرك لكن لا نبالي، لأننا واثقين من بلوغ ذلك المستطيل الأخضر. أتكيء جيداً على المسند وأقود الطائرة على نغم العلامات الموسيقية المدونة على الكابلات. إذا انقضضت علا النغم، وإذا سيطرت على الطائرة كثيراً تلاشى بهدوء. ها هي البيوت الأخيرة، الأشجار الأخيرة أتركها ورائي: يلي الهبوط. الهبوط أمر ممتع. بعدها يأتي الضجر. ولا رسائل. إني حاقد عليكِ من كل قلبي.

أنطوان



(١٦)

شركة كبرى مقاهي تولوز المغفلة

15، شارع ويلسون

تولوز [كانون أول 1926]

وجدت رسالتيكِ يا رينيت. ما كنت أريد إرسال رسالتي. ولكن...

طلبوا مني هذا المساء أن أحزم حقائبي. سأسافر بين يوم وآخر إلى السنغال. ربما أمضي هناك يومين أو ثلاثة أو عشرة أيام. قد تجدين الوقت للكتابة لي.

ما زلت مرهقاً قليلاً من رحلتي. كانت رحلة صاخبة إلى حد ما. بسبب عطل حقير وحادث قرب الرباط. ولم يكن الذنب ذنبي فلم يكن أمامي بقعة ملائمة للهبوط. طائرتي ما عادت تشبه الطائرات كثيراً أما أنا فلم يصبني شيء. حتى ولا كدمة واحدة.

في أسبانيا استقبلتني العاصفة. رقصت تسع ساعات داخلها. تسع ساعات في نفس اليوم من آليكانت إلى تولوز. تصوري لو انطحنت.

أنا الآن مستعد قليلاً للسفر. في يوم السفر سيكون حالي أحسن. وداعاً يا عزيزتي رينيت.

أنطوان

(١٧)

آليكانت، الأول من كانون الثاني 1927

الساعة هي الثانية صباحا، رينيت. غادرت تولوز بعد ظهيرة هذا اليوم إثر رحلة بدون مشاكل. وكان الطقس رائعاً. آليكانت هي أدفأ مكان في أوربا، المكان الوحيد الذي ينضج فيه البلح، وأنا أيضاً -تقريباً- تحت هذه السماء الصافية. أتنزه دون معطف، مدهوشاً بهذه الليلة من ليالي ألف ليلة وليلة، بأشجار النخيل والنجوم الفاترة والبحر المتكتم إلى درجة أننا لا نسمعه ولا نراه، بحر بالكاد ينبيء عن نفسه.

اكتشفت وأنا أنزل من الطائرة أنني شاب تماماً. كنت أشعر برغبة بالاستلقاء على العشب والتثاؤب بكل قواي وهذا أمر ممتع للغاية وبالتمطي وهذا ممتع أيضاً. هذه الشمس كانت تنشط وتفتح أحلامي الأكثر تردداً. كان لدي ألف سبب يجعلني سعيداً. كذلك حوذيو العربات. وماسحو الأحذية الذين كانوا يلمعونها بإتقان، يداعبونها ويضحكون عندما ينهون عملهم. ياله من رأس سنة مليء بالوعود. وأي غنىً في العيش اليوم.

كنت قد أقسمت ألاّ أكتب ثانية. ولكني أعطيت للتو ثلاث سجائر لمتسول لأنه كان يبدو سعيداً إلى درجة أردت معها أن أجعل هذه السعادة تدوم على هذا الوجه. أحس أني ممتلىء طيبة وتسامحاً. لذا أسامحك. وبعد... لقد اتصلت ذلك المساء بـبرتران وكلّمته بخبث شديد إلى درجة أني لم أشأ الاعتراف لنفسي بذلك. وأنت قد روّضتني فصرت متواضعاً جداً. الواقع أنه من الممتع أن يستسلم المرء للترويض. إلاّ أنك ستكلّفينني أياماً تعيسة أخرى. وأنا على خطأ فعلاً.

رينيت ليس ما أقوله شريراً لكن هذه الأمور مهمة لي أكثر مما هي لك. ليس عدلاً أن أعاقَبَ هكذا ببساطة مقابل شرِّي الصغير بكسل بسيط، بل إن هذا شيء لطيف. لكنك لن تفهمي.

في هذه اللحظة أستمع إلى بيانو ميكانيكي... رائع. يبدو لي أن كل الأسبانيات بطلات أوبرا. بسبب البيانوا المكانيكي هناك واحدة منهنّ تبكي في إحدى الزوايا. أرغب كثيراً في معرفة السبب. لأنها حالة فريدة جداً في آليكانت. خمس أو ست نسوة ضخمات يواسينها صارخات جميعهن في نفس الوقت. يصبح المكان صاخباً! لكنها لا تريد أن تفهم أنها سعيدة. وتصرّ على حزنها الجميل.

وداعاً رينيت . ربما أجد رسالتك عند عودتي . سأتنزه أيضاً بصحبة الأسبانيّات . في هذا الطقس شديد النعومة الجميع لديهم سرّ لكنه نفس السر . لأنهم ينظرون إلى بعضهم ويبتسمون . ومن أجل الابتسام ليس ضرورياً معرفة حتى ثلاث كلمات بالاسبانية ، لذلك أتكلم . . .

دفتر رسائلي معي ، إذا رغبت أن أكتب لك هذا المساء أيضاً .

وإذا لم أكتب . . .

أنطوان

(١٨)

الإيبنس. مصنع المثلجات الراقية

منديث نونييث، 4

آليكانت، 2 كانون الثاني [1927]

رينيت أتابع طريقي باتجاه الدار البيضاء بسبب بريد معطّل. أنا مسرور فعلاً.

الطقس ما زال نفسه لكني كئيب قليلاً بسبب معدتي. أردت أن أندمج قليلاً في أسبانيا وجرّبت جميع الفظائع الصغيرة التي يقدمونها على شرفة المقهى. طلبت أولاً دزينة من الأخطبوطات الصغيرة. وتبعتها بقطع غريبة من الكاتو الغريب يقتطعونها من ألواح كبيرة تبدو من الخارج جذابة. ومن الداخل أقل جاذبية بكثير.

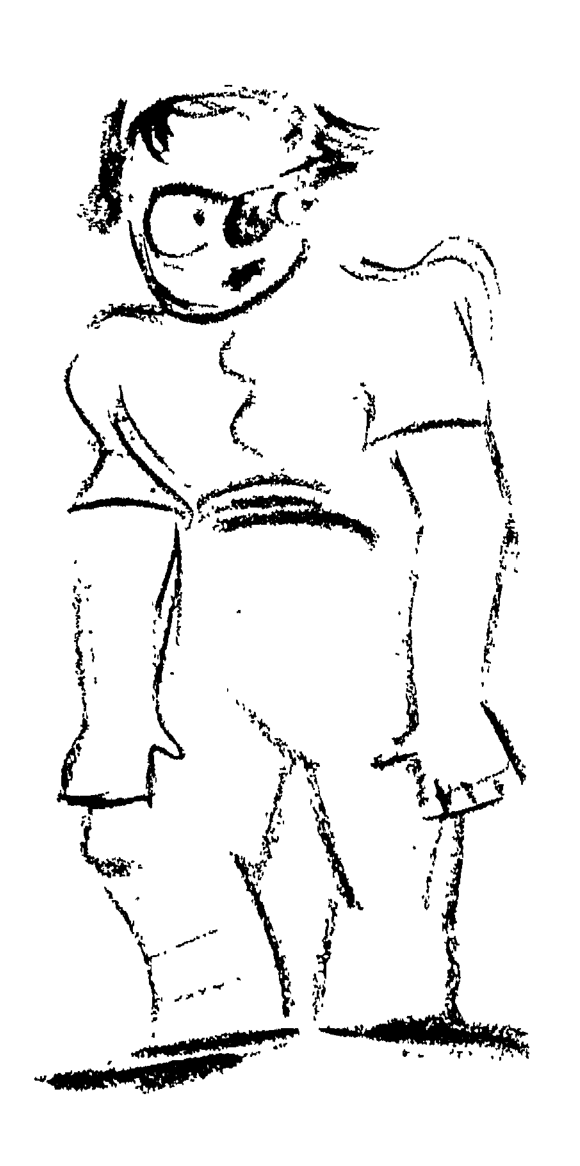
منذ قليل صادفت ثلاثة مصورين جوالين طلبت منهم أن يأخذوا لي صوراً في أوضاع نبيلة. لم تكن الصور جيدة

وقد لفت أحد الرفاق نظري، بشكل لطيف، إلى أنه كان يمكن أن تكون أفضل لكني أستند فيها إلى أشجار نخيل. مما يعطيها خصوصية. قمت بعد ذلك بنزهة بحرية.

الآن سأذهب إلى السينما. بعدها أذهب إلى النوم وغداً صباحاً إلى الدار البيضاء

رينيت عزيزتي، اكتبي لي.

أنطوان



(١٩)

الدار البيضاء، 3 كانون ثاني [1927]

الساعة هي الواحدة صباحاً. سأسافر خلال خمس ساعات لكني لا أشعر بالنعاس. مع ذلك فقد أويت إلى الفراش بكل تعقل.

يبدو لي أني أستمتع بالكتابة لك. أظن أنك تنامين في هذا الوقت، لذا أستطيع أن أقص عليك كل ما يدور في رأسي.

الجو عاصف. نوافذي تهتز بإيقاع غريب. إنها تماماً لغة البرق اللاسكي، أو لغة الأرواح. وأنا منهمك في فك رموزها دون أن أتمكن من ذلك. مع ذلك فإني أرغب في معرفة أشياء كثيرة.

سيارات الأجرة النادرة تصدر ضجيجاً مغمّاً في مدينة نائمة. كذلك لا أحب وقع هذه الخطوات في الشارع. كل ما يلامسني من بعيد يقلقني. كان يمكن أن أكون سعيداً جداً.

لديّ غرفة جميلة جداً. خسارة أني وضعت حذائي على الطاولة. هذا يسيء إلى المنظر أمامي.

رينيت في الليل لا أكون شبيهاً بنفسي. أحياناً ينتابني نوع من القلق عندما أبقى مفتوح العينين في سريري. لا أحب أن يعلن لي أحدهم عن حلول الضباب. لا أريد أن أتعرض لحادث غداً. العالم لن يخسر الكثير أما أنا فسأخسر كل شيء. فكّري بما لدي من صداقات وذكريات والشمس في آليكانت. وهذا البساط العربي الذي اشتريته اليوم والذي يثقل علي بوطأة روح المالك، أنا من كان خفيفاً للغاية عندما كان لا يملك شيئاً.

رينيت عندي رفيق احترقت يداه. أنا لا أريد أن تحترق يداي. أتطلع إلى يديّ وأحبّهما. يداي تستطيعان الكتابة، وتستطيعان عقد رباط الحذاء، وارتجال مشاهد أوبرا أنت لا تحبينها ولكنها تمنحني مشاعر حنان، الأمر الذي احتاج إلى عشرين عاماً من التمرين. وفي بعض الأحيان يداي تأسران وجوهاً، وجهاً. فكّري بذلك.

رينيت أنا اليوم قلق مثل أرنب بري ولا أحب حكاية داكار هذه. وما يقال لي عنها هنا إنها «في حالة هياج

والطيارون القادمون الذين ستتعطل طائراتهم فيها، سيذبحون على يد الموريسكيين» . أنا لا أحب فعلاً أن تموء هذه الجملة في الليل. في الليل كل شيء يبدو لي هشاً. كذلك ما يربطني بكل من أحبهم. الذين ينامون. عندما أسهر في سريري ليلاً عندما أسهر على كنوزي أكون أشد قلقاً من شخص يسهر على مريض. . إني أحرس كنوزي بشكل سيءٍ للغاية.

أنا أحمق قليلاً. في النهار يكون كل شيء بسيطاً. أحب السفر والمخاطرة كثيراً، أحب ذلك في النهار وليس في الليل. في الليل أكون مرهف الشعور وأشفق على نفسي.

يجب أن أقصّ عليك أمراً محزناً أيضاً. كان لدي صديق ظريف مات منذ ثلاثة أشهر في طنجة. قمت بعملية طواف غريبة في طنجة. بحثت عنه، أين كنت تريدين أن أبحث عنه. فكرت بنساء البارات. فقد كان ظريفاً ولا شكّ أنهنّ كنّ يحببنه.

لكنهن يا رينيت لم يحرسنه كما يجب. لم يكنّ مخلصات لقد جعلن كل الذكريات الثمينة تتسرّب. مع ذلك فذلك هو المكان الذي كان يجب البحث فيه. كان ذلك هو الجهد الأكثر إخلاصاً لأننا نعطي لمن نستطيع ما لدينا من

أنفسنا. وكانت أسرته تتكون من نساء حمقاوات. لكنهن لا يعرفن ثمن ما يعطى أحياناً. لقد سرقن أرق وأبهى ما لديه دون أن يدهشن لرقته وبهائه.

رينيت صديقتي العزيزة أنا لا أفهم شيئاً من الحياة.

على كل حال يجب أن أتركك. زوج الأحذية هذا يثير أعصابي: سأطفيء النور.

أنطوان

(٢٠)

فندق إكسلسيور

ساحة فرانس

الدار البيضاء

[14 كانون الثاني 1927]

رينيت كنت قد غادرت تولوز لمدة يوم واحد. وها أنذا أطير منذ خمسة أيام حيثما تدفعني الأقدار. وما عدت أعلم أين أنا. بالأمس تناولت غذائي في آليكانت وعشائي في مالاغا. ربما أجد رسالة منك في تولوز. إنها تنضج على مهل في علبة رسائلي. وسوف أجد لها مذاقاً آسراً. وسأجعلها تقول لي آلاف الأشياء التي لم تقوليها أنت لي أبداً.

فأنا أقرأ الرسائل غدراً. أبحث فيها عن التكشيرة وعن النبرة وعن الابتسامة. وأشعر باليأس عندما لاأعرف كيف ألفظ جملة« الطقس جميل» التي قد تعني أشياء كثيرة. كذلك الأمر بالنسبة لجملة «إنها تمطر» التي قد تعني «ياللسعادة إنها تمطر» أو «إنها تمطر، لكني لا أبالي. . . » أو «ياإلهي إنكَ

تزعجني» أو قد تعني أيضاً «أكتب لك لا أدري لأي سبب. ليس لدي ما أقوله لك. إنها تمطر».

النبرة هي لعبتي.

لي رسالة في تولوز. ولي فيها أيضاً قمصان ومناديل وطبعاً صابون. ولم أحمل من أغراض سوى فرشاة أسنان ومشط. (مشط لشخصين. أعشق هذه الملاحظة)، وكان هذا يكفيني في بربينيان -حيث كنت أذهب. لكني ألعوبة بيد الأهواء وأحلم بالشراشف البيضاء وماء الكولونيا والحمامات وبالأشياء الكثيرة التي تنشر الطيب. أحتاج للكيّ. فأنا أشعر أني دبق ومجعّد كلياً من التعب. لكن لي مفرق شعر ممتاز. أستفيد من مشطي.

لا تزال الرحلة التي قمت بها بعد ظهيرة هذا اليوم تتقاطر في رأسي بسبب إعيائي. المناقشات مع المنظر الطبيعي من الطائرة: هذا الطريق كان يجب حسب الخريطة أن يقطع الخط الحديدي والتقاطع علامة. لكنه يقترب منه يلامسه ويبتعد. لا يبالي بنا ولا بالخارطة ونحن نشتمه «إنك تتلاعب! هيا. اقطع الخط الحديدي...» ولكنه يمضي إلى اليسار مهاناً. ياللشيطان أين نحن؟

وتلك الغابة التي كنا نظنها كثيفة. والتي كانت تشكل بقعة خضراء جميلة على الخارطة. نبحث عنها ولكن ها هي فعلاً. «آه أهي أنت تلك الغابة؟ ما كنت لأصدق ذلك أبداً. هل أكَلَكِ العثّ» ونَنظر بكآبة إلى قبعة القش المفرغة تلك والخضراء على الخارطة.

لا أحدثك عن الآلهة المعادية للجبال. نتقدم لتجاوزها. نحن على ارتفاع ثلاثة آلاف، وفخورون فعلاً. لكن الآلهة المعادية تشدنّا من أقدامنا فيهوي مقياس السرعة «3000... 2500... 1000) ونهوي معه وندور نصف دورة. ذلك أن الجبل الآن أعلى منا والآلهة المعادية تلعب بكرة المضرب ولكن معنا.

بالأمس تجاورت بملء إرادتي خمسة أضعاف المستوى الأعلى. وإحدى المسافرات أغمي عليها عندما بلغت تسع أعشار هذا الارتفاع. لم نعد في مطار بورجيه تماماً...

بعد ذلك نظل فترة من الوقت غير قادرين على الجلوس إلا بابتسامة مكرهة

رينيت أنا سكران من النعاس، ميت من النعاس، أكاد أقع من النعاس. كل جملة أقولها تنتهي بحلم وهذا ليس سوى

وجه واحد من هذا الحلم. وأشعر باليأس من عدم قدرتي على التعبير عن أي شيء مما أظن أني أقوله لك. ما عدت واثقاً تماماً أني في الدار البيضاء. ما عدت واثقاً تماماً من وجودك. دعيني أذهب إلى سريري أو أنام مقابلك وهذا لن يكون لائقاً.

رينيت لم أعد أحتمل كان عملاً بطولياً من قِبلي اني كتبت.

أنطوان



(٢١)

البرتغال. لشبونة

بريد بيلهيتة

لشبونة، 12-9-29

عزيزتي رينيت

أنا مسافر -للأسف!- إلى أمريكا الجنوبية. أمضيت في باريس يومين كئيبين: لم أرَ أحداً. هذا السفر كان مفاجأة كبيرة!

لك صداقتي الأكيدة.

أنطوان

(٢٢)

بوينوس ايريس، 13 كانون الثاني [1930]

يالـها من مفاجأة يا رينيت! تقريباً لـم أكن أتوقع كثيراً رسالة منك. لقد منحتني هذه الرسالة أكثر مما تظنين بالتأكيد. كم أكره الأرجنتين حيث أعيش –وأكره فوق كل شيء بوينوس ايريس– إلى درجة بدت معها تلك الرسالة أشبه باجتياح ألف شيء عزيز ومنسيّ: بورتوس، غرامافون، أحاديث المساء ونحن خارجين من السينما. النادل في مقهى ليب، و أوسيبيو، وشقائي الفتان الذي أتحسّر عليه لأن الأيام كانت ذات ألوان مختلفة من بداية الأشهر حتى نهايتها. كل شهر كان مغامرة جميلة وكان العالم رائعاً. لأني كنت أشتهي كل شيء باعتباري لم أكن أستطيع الحصول على كل شيء. عندها يظن الواحد أن له قلباً هائل الاتساع. الآن وقد اشتريت هذه الحقيبة الجلدية الجميلة جداً، التي كنت أحلم بها، وهذه القبعة فائقة الليونة ومقياس الوقت ذا الإبر الثلاثة، لم يعد عندي ما آمله. وفي هذه الأشهر التي لا نهاية لها كم أشعر أن إيقاع الحياة سيء، وأن الحياة كئيبة.

لكن الأهم هو أني لم أشعر أني خفيف الظل (وهو انطباع شخصي جداً كان لدي) بل أشعر بالثقل والهرم من القيام بدور لم أرغب به ـ فأنا مدير الاستثمار في شركة أرختنينا للبريد الجوي، فرع شركة ايروبوستال التي أنشئت للخطوط الداخلية. لدي شبكة تصل إلى ثلاثة آلاف وثمانمائة كيلومتر، تمتص مني، ثانية بثانية، ما بقي لدي شباب ومن حرية عزيزة على قلبي. أكسب خمسة وعشرين ألف فرنكاً في الشهر لا أعلم ماذا أفعل بها وكم يضنيني الإنفاق، وبدأت أحس بالاختناق في غرفة كدست فيها ألف غرض لن تلزمني أبداً وأبدأبكرهها ما أن تصبح ملكاً لي، ورغم ذلك أزيدها كل يوم.

لا شك أني أقدم دون أن أعلم، أضحية لإله مجهول.

أسكن شقة صغيرة في بناء من خمسة عشر طابقاً، سبعة فوقي وسبعة تحتي ومن حولي مدينة هائلة من الاسمنت. ربما كنت سأشعر بنفس الإحساس بالخفة لو كنت في قلب الهرم الكبير. ربما كنت سأشعر بنفس الإحساس بالنزهات الجميلة التي علي أن أقوم بها. للأسف يوجد هنا فوق ذلك الأرجنتينيون.

أسأل نفسي كيف سيمكن للربيع أن يخترق آلاف الأمتار المكعبة من الأسمنت هذه. أعتقد أن زهرة الخبيزة، تموت في الربيع إن وضعت على النافذة. كنت أحب الربيع في باريس كثيراً. ذلك الفرح بالحياة الذي كان يجتاحني في نفس الوقت الذي يجتاح فيه أشجار كستناء شارع سان جيرمان. ذلك الشعور الذي لا يفسَّر المنتشر في كل مكان.

لكني لا أعرف ما إذا كان يجب أن أتحسر على باريس: الآن لا أشعر فيها جداً أني في بيتي، للناس فيها مشاغل كثيرة لم أتعاطاها. إنهم يعطوني أجزاء من وقتهم: لم يعد لي فيها مكاني اللمرئي، وأصبح هدا أمراً ملموساً إلى حد رهيب.

عزائي الوحيد هو أن أقود طائرتي. وأقوم بعمليات تفتيش وتجارب وأستطلع خطوطاً جديدة. لم يسبق لي أن طرت بهذا القدر. عدت أول أمس من أقصى الجنوب: 2500 كم في نهاري: أهي غارة جميلة صغيرة؟

إنها منذ داكار، المرة الأولى فعلاً، التي أستطيع أن أكلمك فيها دون مرارة. حقدت عليك كثيراً. شيء يثير

الفضول كم تجيدين عدم فهم أي شيء عندما تريدين ذلك.
رغم أن هذه الأشياء البعيدة غير مؤذية. كنت ولداً مجنوناً ومضحكاً. أو بالأحرى -قبل داكار- ولداً مخدوعاً قليلاً بأوهام الشباب. بآمال الشباب. أنت كنت عقلانية إلى أقصى حد. على الأقل هذا ما أظنه. الأمر الذي آلمني ثم أفادني. الآن لا بأس.

هاقد عدت مراً من جديد. ورغماً عني. يبدو لي أني أدافع عن الطفل الدي كنته...

يجب أن تقولي لي متى ستصلين: سأطلب من الشركة الشقيقة التي يتبع لها خط ريّو السماح لي بنقل بريد: سأذهب لانتظارك أو للقائك. سأكون ظريفاً. سأصطحبك لتناول مشروب، سأقرأ لك كتابي الثاني، سأدعوك للغداء، وسآخذك للطيران فوق ريوّ. ربما سأكون كئيباً بسبب الطفل الذي كنته.

هل ستأتين أنت أيضاً إلى مدبنة البؤس هذه؟ أتعرفين بوينوس إيريس؟ لا أذكر. إذا أتيتِ سأكون سعيداً.

اكتبي على المغلف (جواً). فبالفعل ليس هناك داع أن نتعب أنفسنا بنقل الحقائب التي تحمل البريد إذا كانت الرسائل التي يرسلها لنا الآخرون تصلنا عن طريق البحر.

إلى اللقاء رينيت

أنطوان

ممر غيمس

شقة605

شارع فلوريدا

بوينوس ايريس . الأرجنتين

(٢٣)

[18 تموز 1930]

رينيت، كيف يجب أن أعلم بمحض الصدفة أنك في ريّو: إنك حتى لم تقولي لي ذلك. كان بوسعي المجيء بكل بساطة الأسبوع الماضي

ربما مازلت أستطيع المجيء لكنك حتماً محجوزة على غداءات وعشاءات وسهرات، وستكونين غير مرئية. ثم إنك لا تبدين شديدة التمسك بالأمر.

إذا كانت الطائرة القادمة من الشمال لم تمرّ بعد فربما يكون لديك الوقت لإرسال كلمة صغيرة لي.

صورتك مختلطة بذكريات كثيرة، وأنت تشكلين جزءاً كبيراً جداً من الحياة الماضية التي ماكنت أظنها ممكنة، عند الذهاب إلى فرنسا، لو لم أرك

تأتين إلى ريّو وترين ذلك ممكناً جداً والغريب أني أشعر بأني هرمت قليلاً لرؤية جميع ذكرياتي تهرم.

أنطوان

ريكونكويستا 240بوينوس ايريس

(٢٤)

بريد الأرجنتين الجوي

ريكونكويستا 240

بوينوس ايريس [25 تموز 1930]

رينيت أكتب لك رسالة صغيرة أخرى   لا أدري ربما لن أستطيع الذهاب إلى ريو أبداً. فاتتني الفرصة الوحيدة الأسبوع الماضي عندما لم أكن أعرف أنك هناك. هذا يشعرني بالأسف قليلاً.

متى ستكتبين لي الجواب؟

تعرفين رينيت، صداقتي القديمة لك.

أنطوان



(٢٥)

آغاي [فار]

وهكذا . . . -قرارات حكيمة، رسائل ممزقة، كم مزقت من الرسائل خلال عامين- ثم بجانب النار، عند منتصف الليل، ترتخي جميع القرارات. فأمنح نفسي رفاهية ارتكاب حماقة صغيرة جداً وهزيمة صغيرة جداً. وأشرب الساي المحلى جداً. وأنعطّر بهذه النار التي نفوح برائحة الكينا وصمغ الراتنج. بل أظن حتى أني أبتسم ببطء ابتسامة صغيره بيني وبين نفسي، لأني لست خجلاً . . .

لكن ماذا أحكي لك؟ أنا نصف حكيم. ولو كنت بقربك هذا المساء لبقيت دون كلام طوال ساعة مسنغل كلياً بعدم فضح فكرة صغيرة نائمة. بالاسنمتاع بها دون قولها لنفسي. فكره عذبة طالما أنها لا نزال نائمة أتكونين قد علمتني أن أمارس الغش مع نفسي! وهكذا يكون علي أن أكتب لك رسالة لا معنى لها إطلاقاً. وكأنها نزهة صغيرة في حديقة. أو أيضاً رسالة استيقاظ. عندما نتمطى ولا نكون قد عرفنا بعد لماذا هو ممتع أن نعيش.

أريد خاصةً ألا أنتظر شيئاً. في نولوز كنت أجد نفسي منجذباً من طرف المدينة نحو علبة بريدي كل ساعة وكنت أعود أحياناً من المغرب بعد ثلاثة أيام من الغياب. ثلاثة أيام فائقة الطول. كانت كل نساء العالم سيجدن خلالها الوقت الكافي للكتابة لي. فكم لدي من فرص لتلقي الرسائل عندما يتعلق الأمر بامرأةواحدة. كنت أحب أن أعطي حرية الثلاثة أيام هذه.

كانت هناك مفاجأة تعد لي وذهبت في نزهة كيلا أسبب الإحراج لأحد. يالي من ساذج. كنت حقاً شخصاً تعيساً جداً. وعند المساء كنت أكتب من مقهى لافابيت رسائل ليس للحمل فيها أهمية. لكنني أخبيء فيها أسراري تحت نبرة الكلمات فعندما كنت أقول: «آليكانت. آليكانت بشمسها وشجر برتقالها... فقد كان ذلك باسماً جداً. وشفافاً مثل وجه! وذلك الشتاء وكل فصول الربيع تلك التي كنت أشي بها في العالم -فوق مالاغا- فوق قرطاجة- كل فصول الربيع تلك التي كنت أبوح معترفاً بها .. كنت مجنوناً.

ولأن الآخرين كانوا يريدون في المقام الأول عدم فهم سيء. فلم يكن هناك من داع للخوف على أسراري التي لا أجيد الحفاظ عليها تماماً. بعد ذلك تلقيت في السنغال

الكلمات التالية: «اكتب لي بسرعة رسائل أخرى. أحب رسائلك جداً . » وشعرت بالغيرة من رسائلي. وصرت شبيهاً بذلك الرجل الذي قدم، على سبيل الفطنة، حجراً ثميناً حقيقياً على أنه مزيف. استغل الآخرون الفرصة. شكروه على الحجر المزيف وطلبوا منه· «اِرسل لي بسرعة واحداً آخر . » ثم «القذر. لم يعد يرسل لي شيئاً!» ياله من رجل عجوز مسكين

بالطبع كنت أفضّل لو أقطّع قطعاً صغيرة على أن أكتب. لكن السنين تمنح المرء سكينة. ممرات متنوعة. أو أيضاً الكازابلانكيات. أو ربما هو نوع من شيخوخة القلب باختصار. ربما أن كل ذلك ما عاد له أهميه

أنا بلا شك أكذب قليلاً.

ودون شك كان هناك شيء قليل الأمانة في أغنية «الحياة الباريسية» ومحاولة غادرة لإنشاد أغنية غيرها على الغيتار هي حتماً الأغنية التي كانت دليلة تغنيها لشمشون لكي تقص له شعره. ارتاب شمشون بالأمر. ألاتعنقدين! إلا أن ذلك اللحن كان يعجبه أكثر مما كان يعجبه شعره.

الليل يستمر ببطء. وببطء أنام. وأحذر من بوحي بأسراري. ويقلقني نسياني لضغائني: هذا أمر خطير. ربما أكون أيضاً مفتوناً بضعفي.

لا أريد أن أعرف إن كنت قد وقعت في الفخ أم لا. . أنا شمسون الذي لا يجرؤ على الحراك. الذي لا يجرؤ قطع الخيط. شمشون المفتون لكونه هذا الغلام الذي وقع في مصيده فاص طيور.

أنطوان

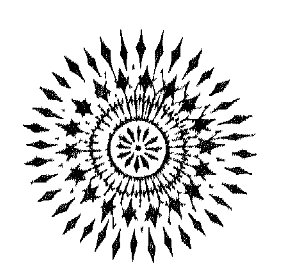


كلمة ناشر الطبعة الفرنسية

حرصنا على احترام إيقاع فكر انطوان دي سانت إكزوبيري، في تاريخ كتابة هذه الرسائل. إنه لا يولي أية عناية بالمواصل. وجملته تتعجب دون علامة التعجب، وتتساءل دون إشارة الاستفهام. إنه مثل أولئك الفرسان الذين يدعون إيقاعهم الخاص يتبع غريزة الدم الخالص ويأخذ مجراه.

الفهرس

٢٠٠٠ ط١ /١٢/١٩٩٦



طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

سعر النسخة داخل القطر

٧٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل

١٥٠ ل.س